تعويذة علّام

رواية

علياء هيكل



دار اكتب للنشر والتوزيع

تعويذة علّام

تعويذة علّام

الجزء الأول والثاني

علياء هيكل

الطبعة الأولى ، القاهرة 2019 م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد رجب عواد

رقم الإيداع : 26857 /2018

I.S.B.N: 978-977-488-621-8



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

الإهداء

إليك قارئي العزيز المسافر بين الكلمات المرتحل بخيالك إلى أبعد النجمات.

فلنمض سوياً نعبر من عالمنا إلى أبعد المسافات..

علياء هيكل

1

كانت تحاول ان تنطق اسمي بصعوبة وهي تناديني بصوت مكتوم يخرج من بين شفتيها المرتعشتين ترغب في أن تقول شيئًا يبدو مهمًّا.. وبعد معاناة في نطق الكلمات ومجاهدة مني لكي أفهم.. أوصتني بكلمات هي أشبه باللوغاريتمات حيث قالت:

– تخلصي من كل ما بالبدروم ولا تفتحي مقفولًا ولا تنبشي مردومًا!

– ما هذا المقفول؟ وما هذا المردوم يا ترى؟

ثم همست بصعوبة قائلة:

– البدروم..

رحلت جدتي «رقية» تاركة لي الوحدة والغربة وكلمات لا أفهمها..

قبل وفاتها بأسبوع دخلت على جدتي غرفتها فوجدت بها ملقاة على الأرض.. تتنفس بصعوبة.. صدرها يعلو ويهبط بصورة مخيفة، وعيناها شاخصتان إلى سقف الغرفة.. ترفع زراعها لأعلى.. وكأنها تتفادى شيئًا ما.. نظرت إلى أعلى فلم أر شيئًا..

" ترى ما الذي كانت تخشاه جدتي؟ لم أعرف ساعتها ما الذي كان يخيفها وتريد إبعاده عنها أو عني.."

قال الطبيب لي بعد أن أعطاها دواء مهدئًا:

– لقد تعرضت جدتك لانفعال شديد أصابها بجلطة..

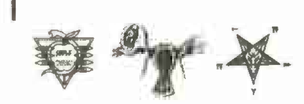
لم أتذكر قط أنها تضايقت أو مرت بأي حدثٍ أثار انفعالها، كنا نعيش أنا وهي وأم هانم التي كانت تدير لنا شؤون المنزل حياة هادئة في منزلها الذي ورثته عن أجدادها..هي حياة أشبه بالعزلة.. لا نختلط بأحد ولا يزورنا أحد.. وكأننا فرع لا جذر له.

ولا أعرف أحدًا من عائلتي فلقد ماتت أمي وكنت وقتها لم أكمل عامي الثاني، ولم أشعر بفقدانها كانت جدتي عوضًا عنها..

ظلت جدتي على هذه الحال أسبوعًا كاملًا، وكنت لا أبرح غرفتها إلا للضرورة.. ولم تذق هي طعم النوم في تلك الأيام.. كانت تأتيها نوبات أشبه بنوبات الصرع.. تحدق إلى وجهي ثم تحدق إلى ما تراه يسكن سقف الغرفة.. ثم ترتعش وتشير إلى بأن أرتمي في حضنها فأفعل.. فتحاوط عليّ بزراعها اليمنى ثم ترفع زراعها اليسرى،وكأنها تبعد ذاك الشبح الذي لا أراه.. ثم تغط في النوم..

رحلت جدتي بينما بقيت وصيتها تتردد باستمرار في عقلي..

"تخلصي كل ما بالبدروم ولا تفتحي مقفولًا ولا تنبشي مردومًا!".



يبدو أنها ترغب في أن أتخلص من كل ما في الحجرة الصغيرة الموجودة أسفل البيت (البدروم)، كنا نستخدمها في تخزين الأشياء التي لا نستطيع الاستغناء عنها وقد نحتاج إليها فيما بعد.

عشت أيامًا عصيبة موحشة وحيدة بين جدران هذا المنزل الكبير الخاوي.. لم أخرج قط من المنزل، بل لم أحاول حتى دفع نفسي إلى ذلك.. فلم أجد لديَّ الرغبة أو الدافع أو قد أكون اعتدت تلك العزلة التي فرضتها عليَّ جدتي.. لا أعلم لِمَ كانت تخش أن نختلط بالآخرين أو أن يزورنا أحد.. كانت تُبعد عنا أي شخص يحاول الاقتراب أو التودد.. كانت تنفر منهم ودائمًا ما كانت تنصحني بعدم الثقة بالغرباء.. على أي حال لم يكن هناك أقرباء ليكون هناك غرباء نتهيب أو نحترس منهم.. حتى في كل سنوات دراستي وإلى أن التحقت بالجامعة كنت أتوجس قلقًا من كل من يحاول مصادقتي او الاقتراب مني حتى اناه اصبح يُعرف عني هذا فتجنبني الجميع.. فلم أفز على الإطلاق بأي أصدقاء أو برفيق كمثيلاتي في الجامعة.. كنت أنهي محاضراتي وأتجه على الفور عائدة إلى المنزل.. وما زلت أذكر هذا الشاب الوسيم بعينيه الخضراء ولونه الأسمر الجذاب والذي طالما حاول جاهدًا بغير تتطفلٍ التودد إليَّ ولكني قابلته بكل تجاهل متعمد.. كان راقيًا هادئًا لا يشبه الآخرين.. حتى انتهت سنوات الدراسة بالجامعة ولم أره بعد ذلك أبدًا..

وبوفاة جدتي وبعد أن تقبَّلت واقعي الجديد بصعوبة لم يعد أمامي غير أن أكمل حياتي وحدي وبدونها فقد كانت هي الشخص الوحيد المتبقي من

عائلتي التي لم أعرف عنها شيئًا.. فحاولت اجترار تلك القوة التي كانت دومًا تمنحني إياها حتى أستطيع مواصلة حياتي..

وتذكرت وصيتها.. بصراحة لم أكن في حالة جيدة بعد وفاتها تمكنني من تنفيذ تلك الوصية الغريبة! ولكي أكون أكثر صراحة لم أكن عاقدة العزم على تنفيذها.. ولكني عدت وتذكرت نظرة التوسل التي كانت في عينيها وهي توصيني بذلك.. فإكرامًا لروحها الطيبة قررت النزول على طلبها الأخير وتنفيذه.

***

2

لم أكن قد دخلت تلك الحجرة المسماة بالبدروم منذ كنت طفلة في السابعة من عمري عندما عثرت علي جدتي وأنا أحاول العبث بمحتوياها لعلي أجد فيها ما ألعب به.. كنت دومًا أظن أن جدتي تخفي عني اللعب الجميلة في هذه الحجرة حتى لا أكسرها فقد كنت دومًا لا أهدأ حتى أفتح ألعابي فأكسرها لأعرف ما بداخلها ..

أذكر في هذا اليوم أنني ولأول مرة أرى جدتي بهذه الحالة من العصبية والغضب حين رأتني وأنا أفتش في تلك الحجرة! فصرخت فيَّ وحذرتني بشدة وقتها من عدم النزول اليها مرة أخرى أو اللعب فيها .. والعجيب الآن أنها هي من تريدني أن أدخلها وأتخلص من كل ما فيها!

بعد أن انتهيت من بعض الأعمال المؤجلة وقد انتصف النهار توجهت إلى الممر المؤدي إلى البدروم.. فنزلت على السلالم المؤدية إلى باب الحجرة.. كان الممر مظلمًا، فهذه المنطقة من المنزل معتمة لا يصلها الضوء فلا نوافذ فيها عدا مصباح صغير أذكر أنه كان معلقًا فوق باب الحجرة

من الخارج عند نهاية السلم وكان زر الضوء الخاص به على الحائط الأيمن.. فأخذت أتحسس الحائط بحذر حتى لا أنزلق على درجات السلم إلى أن عثرت عليه وبلمسة من أصابعي أضأت النور وأكملت طريقي نزولًا إلى باب الحجرة، وتذكرت في تلك اللحظة نفسي وأنا طفلة أنزل على نفس السلالم..

وتعجبت من أين أتيت بهذه الجرأة وقتها وقد كنت بهذه السن الصغيرة لأنزل وحدي إلى ذلك المكان المظلم والمقبض! لا أذكر وقتها أنني كنت خائفة من أي شيء! كل ما كان يهمني هو أن أعثر على اللعب التي ظننت أن جدتي تخفيها عني في تلك الحجرة!

لا أعرف لَم شعرت هذه المرة بان السلم درجاته طويلة تكاد لا تنتهي حتى وعندما وصلت أخيرًا إلى آخر درجة فيه التفت ورائي لأرى هل هي طويلة فعلًا أم أن شعوري بالرهبة أوهمني بذلك.. ثم التفت ثانية باتجاه الباب الخشبي القديم الذي ما زال يحتفظ برونقه رغم الزمن وأمسكت بمقبضه النحاسي المزين بنقوش أنيقة حفرت ببراعة.. فتحته بحذرٍ فأحدثَت مفاصله صريرًا حادًّا بدا لي وكأنه يتأوَّه متألمًا لطول بقائه مغلقًا كل تلك الفترة، فلم يفتحه أحد منذ ذلك اليوم.. كان ضوء المصباح المعلق على باب الحجرة يصل ضعيفًا إلى داخلها ولكنه سمح لي برؤية الغرفة بصورة واضحة إلى حد ما.. دخلت منتبهة لخطواتي وأنا أدور بعيني في كل اتجاه من حولي وإلى تلك الأرفف وهذه الأشياء المهملة والمكدسة فوق بعضها البعض.. كانت الغرفة واسعة مليئة بأثاث قديم وقد نالت منه الأتربة

فطمست رونقه وأناقته.. وفي الجانب الآخر وجدت صناديق قديمة من الكرتون وبقايا أخشاب استخدمناها عندما قمنا بتجديد المترل منذ عدة سنوات وكان من بينها صندوق كبير من الخشب مفتوحًا وقد ظهرت منه بعض قطع الملابس القديمة الطراز والتي عفا عليها الزمن فلم يعد أحد يرتدي مثل تلك الملابس.. وفي جانب آخر وجدت أدوات تستخدم في النجارة والسباكة، وكلها أصابها الصدأ من الرطوبة.. كانت الحجرة مزدحمة والكثير من الأشياء ملقى بكل مكان في عشوائية.. فكنت أمر بحرص فوقها محاولة إزاحة بعض منها بيدي حتى لا تتعثر قدمي بها وأقع..

"ما كل هذه الأشياء المهملة؟! لها حق جدتي في أن تطلب مني التخلص من هذه المخلفات عديمة القيمة.. ولكن هل التخلص من هذه التفاهات يتطلب وصية عند الموت! ولماذا لم تتخلص منها بنفسها فقد كان أمامها الفرصة والوقت الكافي لذلك.."

وفي وسط كل هذا الزحام وأنا أتطلع إلى الأرفف الخشبية الثلاثة المثبتة إلى أحد الحوائط لمحت عيناي صندوقًا خشبيًا صغيرًا يقبع متفردًا وقد أثار منظره الأنيق فضولي، كان الرف عاليًا لم أستطع سحب الصندوق من فوقه.. فنظرت حولي أبحث عن وسيلة تمكنني من الوصول اليه.. فوجدت سلمًا خشبيًا قديمًا كان مسندًا إلى الحائط المقابل للأرفف في الجهة الأخرى من الغرفة.. اتجهت إليه كان ثقيلًا جدًا حملته بمشقة عائدة به وأنا أحاول تفادى الاصطدام بأي عوائق على الأرض.. أسندته أخيرًا إلى الأرفف وصعدت عليه في حذر خوفًا من السقوط.. كان السلم يهتز بي وكأنه يحاول إبعادي عن هدفي أو عن ذلك الصندوق!

3

نسيت تمامًا رهبتي التي كنت أشعر بها من ذلك المكان منذ قليل.. مددت يدي إلى الصندوق وسحبته في حرص ونزلت ببطء حتى استقرت قدماي واقفة على الأرض..

كان الصندوق صغير احتويته بكلتا يدي وكان الغبار يغطيه فنفثت فيه محاولة إزاحته، فظهرت نقوشه الرقيقة شيئًا فشيئًا، زهور صغيرة ذات فروع متشابكة.. محفورة بدقه وبراعة..

حاولت أن أفتحه لكن دون جدوى كان مغلقًا بالمفتاح! أشعر أن في داخله شيئًا ما! ولكن كيف سأفتحه.. لا أريد أن أكسره..

قررت بالفعل التخلص من كل ما بالغرفة عدا هذا الصندوق! أعتقد أن جدتي نسيت أمره منذ وقت طويل وأنها لم تكن لتتخلص منه على أي حال! أخذته وأنا مزهوة سعيدة به وكأنني أخيرًا وجدت اللعبة التي طالما كنت أبحث عنها..

وفي اليوم التالي جاء العمال طرف الشركة المختصة التي اتصلت بها لإخلاء البدروم وتنظيفه.. وجلست في ركن بعيد ببهو المنزل أراقبهم في توجس وهم يدخلون تباعًا فيخرج كل منهم وهو يحمل على كتفه أو ظهرة شيئًا من محتويات البدروم.. كنت من وقت لآخر أمسك بنظارتي وأصحح وضعيتها على وجهي في ارتباك وتوجس.. وخاصة عندما كان يرمقني بنظرته الغريبة في كل مرة يدخل ويخرج فيها هذا الرجل العجوز ذو اللحية التي تشبه المكنسة البالية والتي تركها هكذا دون عناية.. فنظراته تلك كانت تزيدني توترًا وخيفة، وعلى الرغم من سنه الكبير فإنه يتمتع بصحة وقوة عجيبة.. كان أكثرهم نشاطًا وهمه.. ظللت هكذا لا أترك مكاني حتى أفرغوا الحجرة من جميع محتويتها.. ودفعت لهم بالمبلغ المتفق عليه.. وتأكدت من أنهم جميعا غادروا فأغلقت بوابة الحديقة بإحكام وكذلك باب المنزل.. وخفّضت الأضواء ثم اتجهت إلى غرفة جدتي التي اعتدت الجلوس بها منذ وفاتها.. وكما كانت تفعل هي كنت أجلس أنا إلى جوار النافذة وقد وجدت فيها ملاذي وطمأنينة وسكينة عجيبة، فعرفت لما كانت جدتي تفضل تلك الخلوة، وهي تتأمل خارج النافذة لفترات طويلة دون ملل.. على الرغم من أن الحديقة التي تطل عليها الغرفة أصابها الكثير من الإهمال وتنامت فيها الأعشاب بكثرة واستطالت فروع أشجارها فباتت تحتاج إلى الكثير من العناية والتنسيق فمنذ أن مات " ربيع " الجنائني لم تأت جدتي بغيره..

أخرجت الصندوق من خزانة الملابس ووضعته على المنضدة تحت النافذة الكبيرة ، فما زال ضوء النهار يعبر منها إلى الغرفة، فتستقبله المرآة الكبيرة ذات الإطار الذهبي التي تزيّن الحائط، ومن ثم باقي الأثاث وكذلك اللوحات الموضوعة بعناية على الجدران، كم كانت جدتي تحب ذلك الطابع الأرستقراطي وكذلك كان معظم طراز المترل..

جلست أنظر إلى الصندوق الصغير أتأمله وأتفحص شكله وتفاصيله.. لا أخفي عليك إن قُلت إن فضولي يكاد يقتلني لأعرف ما بداخله، كنت أنظر له بفضول، وكأني مقدمِة على اكتشاف شيء مبهر..

وأخذت أتساءل سارحة أخمن ما بداخله.

" فهل هي مثلًا خريطة لأحد الكنوز المفقودة التي ستجعلني أعيش مغامرة كبرى بحثًا عن هذا الكتر.. أم أنها مجموعة من الجواهر الثمينة التي قد تحسدني عليها كل النساء.."

ووجدت عقلي يأخذني إلى مجموعة من التكهنات المبالغ فيها.. فطردت كل تلك الاحتمالات وركزت في إيجاد طريقة أفتح بها الصندوق.. من المحتمل أن يكون مفتاح هذا الصندوق لا يزال موجودًا، فجدتي لم تكن تحب التفريط بسهولة في الأشياء وتحتفظ بكل صغيرة وكبيرة.. ولكن أين يمكن أن أجده؟

تذكرت على الفور ميدالية المفاتيح الكبيرة التي لم تكن تفارقها، وكانت تحتفظ فيها بكل مفاتيح المترل؛ قد يكون بها مفتاح هذا الصندوق..

أذكر أني وجدت تلك الميدالية تحت وسادتها بعد وفاتها فاحتفظت بها في خزانة ملابسها.. اتجهت إلى اليها وفتحتها ومددت يدي تحت كومة الملابس المطوية بعناية فاصطدمت أصابعي بها محدثة صوتًا خفيفًا.. سحبتها إليّ.. وأخذت أتفحصها لأعثر على مفتاح هذا الصندوق الذي بدأ يثير فضولي.

لم أحتج لجهد كبير لأصل للمفتاح ففي نظرة سريعة للمفاتيح المتشابكة، عثرت على مفتاح واحد صغير من الفضة يبدو عليه حرفية ودقة صانعه، إنه مختلف عن باقي المفاتيح الأخرى، فأيقنت أنه ولا بد المفتاح الذي أبحث عنه.. مررته إلى فتحة القفل وأدرته قليلًا، إنه هو المفتاح المقصود.. لقد انفتح الصندوق!

***

4

وما إن فتحته حتى هوت كل توقعاتي وتكهناتي السابقة.. فقد وجدت فيه ورقة صغيرة مصفرة اللون! من الواضح أنها قد كتبت منذ وقت طويل، طويت ووُضعَت فوق قطعة من القطيفة الحمراء والتي لُف بها على ما يبدو شيء معدني من الفضة ظهر جزء منه من بين ثناياها..

ودون تردد كشفت عن ذلك الشيء.. لأجده مرآة..

" نعم إنها مرآة.. " واندهشت لم كل هذا الحرص والاهتمام لمرآة؟! وزادت دهشتي عندما لم أجد شيئًا آخر سوى المرآة والورقة الصفراء القديمة..

هذا كل ما بالصندوق.. ورقة صفراء ومرآة!

قلبت في الصندوق الخاوي وتحسست بطانته الستان الزرقاء اللامعة فقد يكون هناك شيئًا ما تحتها لكن لم أجد ما يثير الشك.. فعدت وأمسكت المرآة أتفحصها.. كانت كالتي تستخدمها النساء في الماضي..

يحيطها برواز فضي مستدير محفور عليه نقوش بارزة متداخلة ولها مقبض وكلها من الفضة الخالصة ولها بريقها أخاذ..

عجيب أكان كل هذا الحرص على ورقة ومرآة؟! وكيف لم تتذكرهم إذا كانت حريصة عليهم لهذه الدرجة! أم أنها قد نسيت الأمر بالفعل؟

ما زالت الورقة الصفراء مطوية كما وضعتها إلى جوار الصندوق..

كنت أنظر إليها ولم أعرف لَم ترددت في فتحها وقراءتها، فقد يبدد المكتوب بها حيرتي.. وبالأخير التقط الورقة التي قاربت على الاهتراء برفق.. وفتحتها لأقرأ فيها هذه الكلمات....

"حبيبتي ليلى...

قد تستغربين من رسالتي هذه المرفقة مع المرآة، لا تستغربين نعم إنها مرآة ولكنها ليست كأية مرآة.. إن حرصتِ عليها أرتكِ ما لم يرَه إنسان، وإن أهملتِها أهلكتكِ وأرتكِ ما لم يود أن يراه إنس ولا جان..

هذه المرآة سترين فيها كل شيء.. كل شيء.. فاحرصي ألا يراها أحدٌ غيرك ولا ترثها بعد موتك إلا من تحمل دمك.. وحافظي على سرها ولا تكسريها فتكسرك...

جدتك فاطمة – 17 اكتوبر 1880"

استوقفتني كثيرًا هذه الكلمات التي تحتويها رسالة تلك السيدة والتي تدعى فاطمة وكل هذا التأكيد والتنبيه للاهتمام لمرآة!

وتاريخ الرسالة أيضًا واسم الراسل والمرسل إليه فجدتي ليست فاطمة وكذلك قد مر على كتابة هذه الرسالة أكثر من مائة عام!

فمن هما هاتان السيدتان المذكور اسمهما في هذه الرسالة؟

لحظة! قد تكون فاطمة هي إحدى جداتي لأمي مثلًا.. وكذلك ليلى تلك التي أرسلت لها الرسالة قد تكون جدة لي هي الأخرى..

حيرتني كثيرًا هذه الرسالة وكلماتها الغامضة وخاصة تلك العبارة على لسان الجدة فاطمة «سترين فيها كل شيء.. كل شيء!"

" كيف هذا؟ وماذا كانت تقصد بأنها سترى فيها كل شيء؟ "

التقطتُ المرآة من أمامي على المنضدة وأخذت أقلّب فيها، فلا شيء غير عادي.. غير أن شكلها أنيق جدًّا وأن مثل تلك المرايا لم تعد تصنع في عصرنا الحالي بمثل تلك الدقة والفخامة وكأنها صنعت خصيصًا لأميرة أو لسيدة ثرية، فصناعتها ونقوشها دقيقة وكذلك صفاء زجاجها يجعلني أشعر وكأنها خرجت لتوّها من تحت يد صانعها، يبدو أن كل من ورثت هذه المرآة اهتمت بها وحرصت عليها تنفيذًا لوصية الجدة فاطمة..

أعدتُ قراءة الرسالة عدة مرات.. وفي كل مرة كنت أفكر ما هو السر وراء تلك المرآة! وفي أثناء ما أنا مستغرقة في التفكير وقعت عيناي على قطعة القطيفة الحمراء التي كانت تحوي المرآة بداخل الصندوق.. قطعة فاخرة حقًا من القماش تليق بفخامة المرآة.. فأخذتها وباجهة الناعمة

منها بدأت بتلميع إطارها الفضي الجميل وأنا معجبة بنقوشه وانحناءتها الدقيقة البارزة..

فرأيت أن بعض بصمات أصابعي طُبِعَت على صفحة المرآة مما أطفأ بريقها قليلًا، فأزعجني ذلك وأخذت أحاول إزالتها بإمعان.. وشعرت بالبهجة وأنا أرى وجهي صافيًا، جميلًا.. كما لم أره بذلك الصفاء من قبل..

" لكن.. ما هذا! ومن هذه؟! إنها أنا التي في المرآة ولكن!"

وما هذا القرط الذي يتدلى من أذني، أنا.. أنا لا أرتدي أي شيء في أذني ثم ما هذا؟ شعري صفف بعناية ومرفوع بشكل أنيق..

دققت النظر أكثر في المرآة وأنا غير مستوعبة لما تراه عيناي..

غريب! أسمعني أتكلم فيها وأنا لا أتكلم! وكأنني أشاهد أخرى غيري في المرآة.. أكاد أسمع ما أقول، ركزت أكثر فسمعتني أنادي شخصًا يدعى «نور» فتحسست فمي بأطراف أصابعي المرتعشة وكأني أريد التأكد من أنني لا أتكلم ورأيت نور تلك التي أسمعني أناديها تأتي من خلفي ملبية ندائي! أخذَتْ دقات قلبي تتزايد وأنفاسي تتسارع واهتزت المرآة في يدي المرتجفة..

وبحركة عفوية وخوف شديد يتملكني التفت خلفي لأراها وهي تقترب مني، ولكني عندما التفت لم أجد أي أحد خلفي.. أنا وحدي بالغرفة..

***



5

" لا أصدق! فقد كانت آتية لتوها من ورائي.. أنا واثقة بما رأيت! "

أصابني الرعب وقلبي ينتفض بشدة، وكذلك أنفاسي المتلاحقة، التفت ثانية إلى المرآة التي ما زلت أضغط بقبضتي عليها في توتر.. وأخذت أقلّب فيها لعلي أجد زِرًّا أو ما شابه ذلك.. قد تكون مثلًا اختراعًا قديمًا يعرض الصور بطريقة ما! لم أجد أي شيء.. كل شيء طبيعي.. مرآة عادية.. أو هكذا بدت لي..

عاودت النظر إلى صورتي في المرآة لأجدني مرة أخرى وبنفس الصورة التي رأيتها من قبل في غرفة تشبه إلى حدٍّ كبير غرفة جدتي هذه التي أجلس بها الآن.. وتلك الفتاة التي سمعتُني أناديها لا تزال تقف خلفي وهي تنتظر أوامري! نظرت بطرف عيني المحملقتين إلى جانبي لأتحقق مرة أخرى ما إن كان هناك أي شخص يقف خلفي! فلم أجد شيئًا! شعرت بسخونة ورجفة شديدة في جسدي ولم أعرف هل أنا أشعر بالحر أم أنني أرتعد من البرد..

" هل أنا أهذي؟! "

وأسرعت وأنا ما زلت فزعة متخبطة في نفسي مما رأيت.. فقمت بلفّ المرآة بقطعة القطيفة في عجالة كما كانت ووضعها في الصندوق ومن فوقها الورقة وأغلقته بالمفتاح ويدياي ما زالت ترتعدان فلا أستطيع تمرير المفتاح الي قفل الصندوق، فدفعت به داخل الخزانة وأغلقت عليه أيضًا بالمفتاح.. وأسرعت بالخروج من الغرفة وأغلقت الباب ورائي وأنا لا أشعر بقدميي وكأنني أهرب من خوفي بإغلاق كل شيء بإحكام ورائي بالمفاتيح..

قضيت الساعات التي تلت ذلك وأنا في حيرة وذهول أجلس على الكرسي أمام التلفاز الذي لم يستطع إلهائي بإعلاناته الطويلة ولا ببرامجه المملة، عن التفكر فيما رأيته في المرآة.. كنت في حالة من الشرود.. أعيد على ذهني ما حدث وما رأيت فتسري رجفه في كل أوصالي يهتز معها جسدي كله.. أكاد أجن.. كان صوتي يعلو وأنا أحدث نفسي بتلك الأسئلة التي كانت تدور برأسي ..وتكاد تفتك بعقلي..

" فمن فاطمة التي كتبت الرسالة؟ وهل هي من أقاربي في الأساس أم لا؟ ولماذا حرصت تلك السيدة كل هذا الحرص على المرآة؟ ومن أين حصلت عليها؟ وكيف وصلت إلى يد جدتي؟! وهل كانت جدتي تعرف شيئًا عن تلك المرآة؟ وإن كانت تعرف.. هل كانت تتذكرها عندما أوصتني بالتخلص من كل ما بالغرفة القديمة دون العبث بأي شيء من محتوياتها؟ "

ثم تتردد بقوة مقولة جدتي: "لا تفتحي مقفولًا ولا تنبشي مردومًا".

" فهل الصندوق هو المقفول الذي كانت تقصده جدتي! وان كان هو المقصود فماذا كانت تقصد بالمردوم؟

ثم ما هذا الذي رأيته في تلك المرآة الغامضة؟! إنها أنا.. نعم كانت أنا.. ولكن لا، بالتأكيد لست أنا.. إنها تشبهني حقًّا ولكنها ليست أنا.."

" إذًا هل تعرض المرآة أفلامًا مثلًا! لا.. لا إن المرآة عمرها أكثر من مائتي عام، لم يكن حتى قد تم اختِراع التلفاز ولا عُرِفَت الأفلام المصوَّرة.."

ولم يبقَ أمامي إلا تفسير واحد.. وهو أن المرآة مسحورة!

" مسحورة! كيف ذلك؟ "

" لا.. لا يا «فريدة» أتصدقين مثل هذه الخرافات التي لم نسمع عنها إلا في الحكايات وقصص ألف ليلة وليلة.. لم أكن أتصور يومًا أن أفكر بهذا الشكل أبدًا.. لا.. لا من المؤكد أن هناك خطأ ما.. "

جلست هكذا طوال الليل أكرر كل هذه الأسئلة على نفسي مرات ومرات دون أن أصل إلى إجابة شافية لسؤالٍ واحدٍ من هذه الأسئلة التي كانت تتناوب على عقلي واحد تلو الآخر دون هوادة ولا رحمة..

حتى غالبني النعاس فنمت، وأثناء نومي رأيت حلمًا غريبًا..

***

6

لم يكن غريباً فحسب بل كان حلماً مفزعاً.. لقد رأيت ذلك العامل العجوز الذي أتى مع بقية العمال ليقوموا بإخلاء البدروم رأيته يمر أمامي وهو ينظر باتجاهي نفس النظرة الغريبة المزعجة ويبتسم ابتسامة لئيمة لم أفهم ما الذي يقصده من ورائها.. وكان أثاث المترل يسبح من حولي في الهواء.. ثم فجأة ظهرت أمامي تلك السيدة التي رأيتها بالمرآة والتي تشبهني بشكل عجيب.. كانت تحملق بي.. ووجهها قريب جدًّا مني تكاد أنفها تلامس أنفي.. أحاول الابتعاد لكن شيئًا ما يلصقني بها رغمًا عني.. وشعرت بيد خفية تربت على كتفي عرفت أنها يد نور تلك التي كنت أناديها.. أقصد التي كانت تشبهني تناديها بالمرآة.. فألتفت ورائي فلم أجد أحدًا، وعندما عدت برأسي تبدّل الأمر، فرأيت هذا الرجل بلحيته البالية ذاتها هو الذي يحملق في عينيّ، قريبًا جدًّا مني، وبنظرة خبيثة تعالت منه ضحكة ساخرة أرعبتني فانتفضت من سباتي، وأنا أشهق شهقة فزعة.

7

فقت وأنا ألتقطت أنفاسي المتلاحقة لأجدني ما زلت أجلس القرفصاء على الأريكة والساعة المعلقة على الحائط تشير إلى السابعة صباحًا..

نظرت حولي كل شيء كما هو في مكانه..

" إنه حلم.. مجرد حلم "

على يبدو أن كثرة التفكير بالمرآة هو ما جعلني أرى هذا الحلم الغريب..حاولت تناسي كل ما كان بالأمس، وكذلك هذا الحلم امزعج.. وقمت وأعددت كوبًا من القهوة فأنا أحتاجه بشده أحتاج لأن أستعيد تركيزي.. جلست أرتشف القهوة وبين الحين والأخر أنظر إلى السلم المؤدي لحجرة جدتي..وأنا أحدث نفسي

" هل أصعد وأفتح انصندوق مرة أخرى، وأتحقق من أمر تلك المرآة.."

ولكن كلما تذكرت ما رأيت بها وبالحلم تراجعت..



وبعد مرات من التردد اتخذت قراري أخيرًا.. صعدت إلى غرفة جدتي مرة أخرى.. فلابد من مواجهة مخاوفي بشجاعة حتى ولو كانت المرآة مسحورة! وإن كنت ما زلت أستبعد تمامًا التفكير في مثل تلك الخرافات..

***

8

صعدت السلم الملتوي بخطوات متثاقلة متجهة إلي الغرفة في أخر الممر وقد شعرت ان الأرض تتمدد تحت أقدامي فيزداد الممر طولاً وكأن لا نهاية لخطواتي، وما أن وصلت الى باب غرفتها أدرت بحذر المفتاح وفتحت الباب لكني وقفت على عتبتها لم أدخل إليها ودرت بعيني في كل تفاصيلها التي ألفتها.. وكأنني أعيد اكتشافها للمرة الأولى.. ثم في تردد أنا أقدم خطوة وأرجع أخرى دخلت وقدمي تكاد لا تطاوعني.... كانت الغرفة كما تركتها يعمها الهدوء والسكون الكثيف وكأن الهواء انحسر عنها.. اقتربت من خزانة الملابس وفتحتها وأنا أكاد أتوارى وراء ضلفتها الكبيرة مددت يدي في توجس وأخرجت الصندوق، شعرت وأنا أحمله برعشة غريبة تسري في كل جسدي.. شيء مجهول غامض لا أعرف إلى أين سيأخذني! أو أي لعنة ستصيبني؟! قد لا أستطيع الرجوع أو أتوه في المجهول إلى الأبد.. ولكني رغم هذا قررت الاستمرار..

مررت المفتاح الصغير إلي فتحة القفل، فتحته ببطء وحذر وكأنني أخشى أن ينطلق منه شيء ما فيرتطم بوجهي.. حاولت أن أتنفس بهدوء،

وأن أهدئ من روعي.. مددت يدي وسحبت الورقة الصفراء من فوق المرآة وأنا أحاول إقناع نفسي بأنه لا شيء غير طبيعي! ثم أعدت قراءتها إلى أن وصلت إلى تلك الكلمات «حافظي على سرها ولا تكسريها فتكسرك.»

فعدت وتساءلت:

" كيف لمرآة أن تكسرني إذا كسرتها؟! وما سرها الذي يجب المحافظة عليه؟! "

أخرجت المرآة من الصندوق بيدي اللتين قد قاربتا على التجمد.. وبصعوبة كنت أحاول أن أبتلع لعابي الذي جف في حلقي.. فحررتها من قطعة القماش التي بدت كقيد يكبلها.. رفعتها أمام وجهي وما زالت تلك الرجفة تسري في أنحاء جسدي كله فتهتز معها المرآة بيدي..

***

9

هذه المرة كانت الصورة أوضح وأكثر صفاءً .. كان المكان غير المكان، ولمرة أخرى أرى نفس الفتاة الغامضة التي تشبهني،..

رأيتها تجلس في حديقة وارفة تتكئ على أريكة من الرخام عليها وسائد محشوة مزركشة بألوان جميلة مبهجة.. فجعلت من الجلسة أكثر راحة ورفاهية.. كانت ترتدي ثوبًا فخمًا رمادي اللون من الحرير الطبيعي مزين بقطع (الجيبير) المفرغ موزعًا على الرقبة والأكمام والخصر وأطراف الثوب.. كان ثيابها غاية في الروعة رغم بساطتها وتليق بها وبلون بشرتها البيضاء النضرة.. شعرها البني الناعم منسدلا على كتفيها تداعبه نسمات الهواء الخفيفة.. وقد ألقت الأشجار المورقة بظلالها على وجهها الصغير فزادته جمالًا رغم لمحة الحزن الظاهرة في عينيها.. وشاهدت الفتاة نفسها تقف إلى جوارها تلك التي كانت تناديها «نور» في المرة السابقة.. وفتاتان أخريان قد تكونان من الخدم تقفان في ثبات ترتديان ثوبين متشابهين لونهما

من الأزرق الغامق زينا بالدانتيل الأبيض، وشعرهما مرفوع ومعقود بشريطة بيضاء وكذلك كانت نور ترتدي ثوبًا أخضر اللون، ولكنه بدا أكثر أناقة وأغلى ثمنًا من ثوبي الفتاتين، وتجلس في مقعد قريب من الأريكة التي تتكئ عليها الفتاة المنعمة فعلى ما يبدو أن نور هي الوصيفة ذات الحظوة والمكانة القريبة من الفتاة التي لا تزال غامضة بالنسبة لي..

كان صوت خرير المياه يأتي من نافورة ليست ببعيدة عنهم.. وكذلك صدح الطيور كان يملأ المكان.. كنت أسمع كل ذلك بوضوح.. إن هذه الحديقة تشبه كثيرًا حديقة منزلنا هذا باستثناء تلك النافورة علاوة على أنها منسقة بعناية وتنتشر الزهور الخلابة بكل مكان فيها!

أشارت الفتاة التي تبدو كأميرة.. إلى أحد الواقفات بالاقتراب.. وعلى الفور اقتربت التي كانت على يمينها وانحنت قريبة منها، فأمرتها أن يجهزوا لها العربة لكي تخرج، أومأت الفتاة إيجابًا برأسها وذهبت من فورها..

الغريب أن خوفي والرجفة التي كانت تسري في جسدي تحولا شيئًا فشيئًا إلى فضول وتشوُّق لاكتشاف حقيقة هذا الذي أراه أمامي في تلك المرآة.. فأنا متأكدة من أنني لا أتخيل ومن أنني لا أهذي..

فأردت فقط أن أكمل لأعرف!

وبعد لحظات تغير المشهد كليًا ببطء أمامي..

رأيتها داخل عربة يجرها اثنان من الخيول شاهقة البياض، يقودهما رجل أسمر اللون تبدو عليه الجدية والالتزام مرتديا بدلة سوداء فضفاضة

إلي حد ما وكذلك كان بنطاله فضفاضًا واسعًا، وله أسورة بنهاية كل طرف منه وعلى رأسه قبعة حمراء كانت تشبه الطربوش إلى حد كبير، ممسكًا بيده سوطًا طويلًا رفيعاً من الجلد يضرب به من حين إلى آخر على أحد الحصانين ليبقيهما مستمرين في الانطلاق على نفس السرعة..

كان ضوء القمر قويًا.. فرأيت كل شيء أمامي بوضوح.. وكذلك بدا وجه تلك السيدة الغامضة صافيًا إلا من نظرة الحزن تلك التي لا تزال تملأ عينيها كانت ظاهرة برغم هذا الوشاح الأسود الشفاف الذي أسدلته على وجهها.. وقد ارتدت فوق ثوبها الرمادي عباءة سوداء من القطيفة عقدت من عند الرقبة بشريط مذهب ولها غطاء للرأس تشبه العباءات المغربية التي نعرفها الآن.. وكانت في صحبتها وصيفتها «نور» والفتاتان نفسهما.. تجلسن في صمتٍ وقورٍ لا تتبادلان حتى النظرات فيما بينهما! كنت أشعر كأنني معهم في نفس الحدث، بل وكأنني أجلس معهم داخل العربة نفسها.. لكن لا أحد منهم يراني..

ظلت شاردة الذهن تنظر في حزن إلى الطريق من نافذة العربة التي كنت أسمع صوت عجلاتها بل أكاد أشعر بها وهي ترتطم بالأرض المتعرجة يصاحبها صوت حدوات الخيل وهي تنقر بخطواتها المتسارعة منطلقة على الطريق الذي بدا وكأنه بلا نهاية وأنا أرى البيوت والمحال الصغيرة المتراصة إلى جوار بعضها بعض تمر من أمامي وكذلك السائرون، ولكني رأيت شيئًا غريبًا..

فقد كان الجميع في الشارع يرتدون ملابس تشبه إلى حد كبير بعضها والنساء يرتدين الجلابيب الطويلة السوداء المفتوحة من الصدر تغطي رؤوسهم قطع طويلة من قماش (التُل) الأسود وكذلك الرجال ملابسهم ذات طراز قديم وسراويلهم فضفاضة جدًّا، لكن من بين هؤلاء السائرين..

رأيت رجلًا لفت انتباهي بمظهره المختلف، وكذلك ملابسه الأكثر حداثة بكثير عنهم والتي لا تشبه أزياءهم أبدًا حتى أنها لا تشبه ملابس هؤلاء الذين هم من نفس طبقة هذه السيدة الغريبة.. كان مختلفًا حقًا، وبرغم مرور العربة من أمامه مسرعة إلى حد ما، فقد استطعت أن ألحظه جيدًا ..كان شاب وسيم في منتصف عقده الثالث تقريبًا، طويل يرتدي معطفًا من الصوف الرمادي وله لحية وشارب أنيقين يميلان للون البني الأشقر.. بدا عليه أنه يقف كالتائه يتلفت وينظر للمارين من حوله باستغراب من خلف زجاج نظارته المستديرة.. لم يستغرق الأمر غير لحظات قليلة.. على أي حال قد يكون أحد الوافدين الأوربيين في هذا الوقت!

وبعدما تجاوزنا الشوارع الضيقة.. بدأت البيوت والمحال والناس تختفي شيئًا فشيئًا إلى أن أصبح الطريق خاليًا تمامًا من كل مظهر للحياة وشعرت بالعربة تبطئ من سرعتها رويدًا رويدًا.. لتتوقف تمامًا أمام بيت صغير وقديم من الحجر، كان منظره مقبضًا في هذا الفضاء الخالي تمامًا، فلا يوجد شيء حوله على الإطلاق كان هذا البيت المتواضع يقف وحيدًا هناك!

ومن نافذته الصغيرة يخرج ضوء خافت، نزل الرجل قائد العربة وفتح سلّمًا مطويًا مثبتًا أسفل الباب فترلت الفتاتان أولًا ومن ورائهما الوصيفة «نور» وأمسكت إحداهما بيد سيدها لتساعدها على الترول، ثم مشوا جميعًا يتقدمهم الرجل باتجاه البيت..

طرق الرجل بعض طرقات خفيفة على الباب القديم المتهالك.. كانوا جميعًا غير مستغربين للمكان يبدو أنهم أتوا إلى هنا من قبل..

وبعد لحظات سمعت صوت خطوات بطيئة متثاقلة تقترب من الباب، وما ان انفتح الباب ببطء حتى ظهر من ورائه شيخٌ تخطى عِقده التسعين ببضع سنوات.. ما زال جسمه يحتفظ ببعض من القوة.. ولحيته البيضاء الطويلة تضفي عليه الكثير من الهيبة والوقار غير أن شعره الأشيب الأشعث يجعله مخيفًا بعض الشيء إضافة إلى وجهه الذي تملؤه التجاعيد العميقة..

وعندما ألفى الشيخ الفتاة عند الباب.. انحنى احترامًا وإجلالًا لها وهو يقول: : تفضلي سمو الأميرة فائقة"!

"وأخيرًاا! عرفت اسم تلك التي تشبهني! اسمها «فائقة» .. قال لها سمو الأميرة.. وهي فعلًا أميرة، كان يبدو عليها ذلك منذ أن رأيت صورها أول مرة في انعكاس المرآة!"

دلفت الأميرة إلى البيت، وبقيت الفتاتان والوصيفة «نور» بالخارج على مقربة من الباب.. وعاد السائق مرة أخرى إلى عربته لينتظرهم بها ..



كان البيت من الداخل أكثر تواضعًا منه عن الخارج، الجدران من الحجر وكذلك الأرضية.. كان يبدو أن هذا الشيخ يعيش بمفرده وحيدًا في هذا البيت الذي لا يوجد به إلا بعض من قطع الأثاث القديم.. وقد توسطت المكان منضدة كبيرة.. تزاحمت عليها الكتب والأوراق في عشوائية.. ومن ضمن هذه الكتب كتاب مختلف لفت انتباهي بحجمه وبعنوانه الكبير الذي لم أستطع إلا أن ألتقط بصعوبة آخر كلمتين منه (الحقيقة والهذيان).. كانت يسبقهما كلمات أخرى لكني لم أستطع تمييزها.. وبالقرب من الكتاب وُضع مصباح صغير خافت الضوء، على ما يبدو إنه هو مصدر الضوء الذي رأيته يشع من النافذة خارج البيت.. وإلى جواره دواة كبيرة للحبر وخرائط وأوراق ملفوفة وأخرى غير مطوية تحوي رموز ورسومات لوجوه كائنات غريبة أو حيوانات لا أعرف! ورأيت وأيضا ساعة رملية وأدوات تشبه أدوات الهندسة التي نستخدمها الآن لكنها بالطبع تبدو أقل حداثة.. وأمام المنضدة كرسي له ظهر طويل وذراعان من الخشب نقش على طرف كل منها وجه يشبه وجه الوطواط له نابان طويلان ومن جبهته برز قرنان صغيران! بدا لي هذا الشكل المنقوش على ذراع الكرسي أقرب لوجه شيطان منه إلى وجه وطواط!

تحركت الصورة سريعًا داخل المرآة لتريني باقي تفاصيل هذا المكان الغريب!

كانت هناك على اليمين مدفأة كبيرة من الحجر، وإلى جوارها مكتبة كبيرة بعرض الحائط الملاصق لها.. كُدست على أرففها كتب كثيرة مختلفة الأحجام والأشكال، وبقية الكتب التي ليس لها مكان على الأرفف

وُضِعَت على الأرض بعضها فوق بعضٍ إلى جوار المكتبة، وعلى جدار آخر رأيت رسومًا وأشكالًا تشبه الرموز لنجوم سداسية ومثلثات متباينة الأحجام، ودوائر بداخلها رسومات غريبة!

كانت المرآة تعرض أمامي المكان في تتابُع وكأنني أرى فيلمًا لمخرج محترف يعتني فيه بأدق التفاصيل، شعرت حينها أن المرآة كانت تريد ولغرض لا أعرفه أن تريني كل التفاصيل والأحداث بدقة!

أشار الشيخ إلى الأميرة بالجلوس على الكرسي الوحيد إلى جوار المدفأة والتي قد قاربت النار فيها على أن تخمد.. فرأيته يقترب بثقة من المدفأة، وأشار بيديه إلى النار صعودًا وهبوطًا وكأنه يحدثها بالإشارة كي تزداد توهجًا! فإذا بالنار تزداد فعلًا توهجًا واشتعالًا!

"ما هذا؟ هل ما أراه حقيقي!"

وعدت وتعجبت من سؤالي هذا.. فكل الذي أراه لا يبدو حقيقيًّا فلماذا استغربت من توهج النار بإشارة من يد ذلك الشيخ الغريب!

وعلى ما يبدو أن هذا المشهد لم يكن غريبًا على الأميرة «فائقة» التي كانت تتابع كل ما يحدث دون أي دهشة أو انزعاج! محتفظة برصانتها وملامح وجهها الجادة..

وسمعتها تبدأ كلامها وهي تناديه.. "يا علام.."



فالتفت إليها وأطرق رأسه بكل احترام واهتمام منتظرًا أن تتابع حديثها..

– حين أمرتك أن تصنع لي مرآة أرى فيها الحقيقة فكان غاية ذلك أن تعلمني الحكمة.. لا أن تجلب لي الحزن..

المرآة تريني الماضي كله بآلامه..ماضٍ لم أكن فيه ولم أعشه.. أراها تجبرني على أن أعيشه وأشعر بكل حدث فيه..

علام وهو مبتسم ابتسامة واثقة حكيمة:

– أميرتي.. كان طلبك أن تعرفي أكثر عن نفسك، ولكي يتعرف الإنسان على كينونته لا بد من الغوص في بحار الماضي.. قد تحزنين مما ستراه عيناكِ، وتتألمين من أفعال بعض البشر، وستندهشين مما تخفيه نفوسهم.. وسترين أيضًا أن الخير قليل جدًّا.. وفي كثير من الأحيان سيكون الشر أقوى.. لكن الحزن هو طريق الحكمة.. وحينها ستتعلمين أكثر وستعرفين حقًّا من أنت!

»فائقة» وقد بدت عليها الحيرة:

– كنت أظن أن رؤية الماضي مسلية وممتعة، وأنني سأكتسب الحكمة من رؤية تجارب السابقين، ولكني لم أعايش سوى تجارب حزينة مؤلمة.. محزنة! لا أستطيع استيعابها .

– من هذه التجارب ستتعلّمين وتعرفين... وعلى أي حال أحب أن أقول لكِ شيئًا آخر عن المرآة..



»تنظر إليه الأميرة فائقة بتشوُّق وفضول.. "يبدو أنها لا تشبهني فقط في الشكل، ولكن تشبهني أيضًا في نفس تلك النظرة المملؤة بالفضول والتشوق لمعرفة المجهول!"

يستطرد علام قائلًا وقد أعجبته تلك النظرة في عينيها اللامعتين..

- المرآة لا تريكِ الماضي فقط.. بل سترين فيها أي شخص تتمنين رؤيته وكيف هو في تلك اللحظة التي تطلبين فيها من المرآة ذلك.. حتى وإن كانت تفصل بينك وبينه الوديان والبحار..

- ولكنك لم تخبرني بذلك من قبل.. أخبرتني أنها تريني الماضي!

- نعم سمو الأميرة، ولكني لم أخفي ذلك إلا عن قصد.. كان لا بد أن تَرِي الماضي أولًا قبل الحاضر.

- وكيف لك أن تخفي عني ذلك، هل هي استهانة بشأني وقدري يا حكيم علام؟!

- عفوًا سمو الأميرة أنا لا أجرؤ على الاستهانة بقدر سموك، ولكن يغفر لي أنني كنت دومًا لك معلّمًا وناصحًا أمينًا ولهذا سمحت لنفسي بالاحتفاظ مؤقتًا بهذا الجزء من الحقيقة حتى تحصلي على ما أردتِ أولًا.. معرفة نفسك!

ثم عاد الشيخ واستطرد بعد لحظات قليلة من الصمت قائلاً:

- ولتعتبري هذا هو درسي الأخير لكِ والذي قد لا يمهلني القدَر لأعلمك غيره.

في تأثر واضح تسارع فائقة

- لا تقل ذلك يا حكيم علام أطال الله عمرك ومتعني بعلمك وحكمتك اللذين لا أكتفي منهما أبدًا..

ولكن قل لي: كيف أطلب من المرآة أن تريني شخصًا بعينه؟!

- يكفيك فقط أن تفكري بهذا الشخص وأنتِ تنظرين إليها!

ولكن.. بقي شيء آخر وهو الأهم.. قالها وهو يشير اليها بإصبعة منبهاً

- ما هو؟ أخبرني..

- احرصي سمو الأميرة ألا تبوحي بسر المرآة لأي شخصٍ مهما كانت مكانته عندك.. واتركي لمن ترثها بعدك من دمك اكتشاف سرها بنفسها؛ فالمرآة سوف تتولى ذلك الأمر، ولتتعاملي مع ما ستشاهدينه بحكمة ولا تندفعي في ردود أفعالك مهما كان ما سترينه في تلك المرآة.. وإياكِ.. إياكِ أن تكسريها فتكسرك«!

هكذا انتهت كلمات الحكيم علّام.. وكذلك الأحداث التي تمرّ أمامي بالمرآة اختفت!

" ان هذه الكلمات الأخيرة التي قالها الحكيم علام للأميرة هي نفسها الكلمات المكتوبة في رسالة الجدة فاطمة! هذه إذًا شروط المرآة! أو بالأصح شروط الحكيم علّام الذي قام بصنعها وهو أيضًا معلّم الأميرة «فائقة»، ولكن من هي الأميرة «فائقة».. ولِمَ تشبهني إلى هذا الحد؟!"



وهكذا مرت هذه الليلة أيضًا دون أن أستطيع النوم، فالأفكار تتصارع داخل رأسي تحدثني وأحدثها طوال الليل، وأنا أعيد على نفسي كل ما رأيته وسمعته بالمرآة.. حتى بدا لي أول ضوء للنهار.. فقررت أن أذهب إلى دار الوثائق لاستخراج وثيقة توضّح شجرة عائلة أمي، فلربما أعثر على اسم الأميرة «فائقة» من ضمن شجرة عائلتي.. أو لعلّي أصل إلى بعض إجابات لهذه الأسئلة التي تكاد وأن تصيبني بالجنون، والتي لم تتركني حتى وأنا أسير في طريقي متجهتًا إلى دار الوثائق.. كنت أفكر كيف أصل إلى معلومات عن ذلك الحكيم علام؟ وإذا كان هو معلّمًا حكيمًا، فلا بد أن له مؤلفات وكتابات فهو كما ظهر لي بالمرآة دائم القراءة والبحث.. فلا بد وأنه قد ترك أثرًا ما ورائه.

"ولكن في أي الفترات سأبحث عنه؟ فأنا لا أعرف في أي زمنٍ عاشت الأميرة فائقة ولا الحكيم علام.."

وأخيرًا.. استقر بي الأمر أن أبحث عن اسم الأميرة فائقة في تاريخ الأسرة الملكية بمصر؛ فهي أميرة كما كان يناديها علام.. ومن المؤكد أن يكون قد ذكر اسمها في الكتب التي تؤرخ للأنساب والعائلات وتاريخها..

***

10

قضيت الثلاثة أيام التي تلت ذلك وأنا أتنقل بين دار الوثائق بروتينها العقيم وطوابيرها العشوائية، وبين المكتبات الكبرى التي تشبه المتاهات أفتش بين الكتب وأجمع المعلومات..

على أي حال استخرجت أخيرًا ورقة توثق تسلسل عائلة أمي.. أو شجرة العائلة..

عدت إلى المترل وأنا أشعر بنشوة الفوز بعد كل تلك المعاناة المضنية التي كابدتها إلى أن حصلت على هذه الورقة.. ولم أفكر حتى في أن أتناول بعض الطعام الذي لم أذق منه الا القليل منذ الصباح واتجهت سريعًا إلى غرفة جدتي ووضعت الأوراق على المنضدة وأخذت أتابع في تشوق وتركيز تسلسل الأجداد وأبنائهم وأزواجهم وزوجاتهم، الأسماء كثيرة اتفحصها بفضول إلى أن وقعت عيناي على اسم قد مرَّ عليّ سابقًا.. «ليلى» ووجدت الوثيقة تشير إلى ان جدتها تسمى فاطمة!

"هل تكون «ليلى» هذه هي نفسها ليلى حفيدة «فاطمة» صاحبة الورقة الصفراء؟ مؤكد.. فالأوراق أمامي تقول إن «فاطمة» أنجبت ولدًا واحدًا هو "حشمت" وله ابنة واحدة اسمها "ليلى"!

وأن «ليلى» هذه لم تنجب أبناءً على الإطلاق! وانه كان لفاطمة هذه أخت واحدة أيضًا اسمها "عائشة" وانجبت فتاة واحدة هي "سلوى" والتي أنجبت ولدا اسمته "مراد" والذي كانت له ابنة وحيده تدعى "سلوى" أيضاً.."

"على ما يبدو أن رحلة المرآة لم تكن رحلة عادية.."

فعلى ما يبدو أن مراد هذا أطلق نفس اسم والدته على ابنته كما يفعل بعض الرجال إلى الآن تقديرًا منهم واعتزازا بأمهاتهم..

وجدت نفسي تائهة بين الأسماء وقد تشتت تركيزي.. فمن والد من ومن ولدُ من.. وتشابكت عندي العلاقات بعضها ببعض.. فأحضرت ورقة ورسمت عليها دوائر متسلسلة.. كل دائرة تحمل اسم عضو في العائلة تتصل بها دوائر تحوي أسماء الأبناء ثم الأحفاد وهكذا .. وجدت أن هذا سهل الأمر عليّ كثيرًا..

وأصبحت متأكدة أن فاطمة وليلى اللتان أتى ذكرهما بالوثيقة هم نفسهما فاطمة وحفيدتها ليلى سيدتا الورقة الصفراء، وشعرت بحماس شديد لأن أراهن.. أريد أن أرى كيف كانت فاطمة صاحبة الرسالة وحفيدتها ليلى وباقي الجدات والأجداد..إنه شيء يفوق الخيال، لا يستطيع عقلي تصوره!

تابعت البحث حتى وصلت إلى الجدة السابعة، واسمها «نورشاه» المتزوجة بابن عمها الأمير "شاهر" ، ومن خلال معلوماتي التي جمعتها عن تاريخ العائلة خلال الايام الماضية عرفت أن شاهر هذا تركي الأصل قدمَ إلى مصر منذ حوالي الخمسمائة عام، وذلك كان مع بدايات الحكم العثماني لمصر، حيث ترجع أصوله إلى آل عثمان (العثمانين)..

واستقر هو وزوجته «نورشاه» بمصر وكما هو مدوّن بشجرة العائلة أنهما أنجبا بنتًا واحدة.. تدعى «فائقة!»

وقفت مشدوهة عند هذا الاسم ولم أصدق "إنها هي.. بالتأكيد هي نفسها الأميرة فائقة التي أراها بالمرآة!"

ان الأميرة فائقة إذًا ومن المؤكد لي الأن أنها هي إحدى جداتي وفاطمة وليلي أيضًا من جداتي! بالطبع مع اختلاف الزمن الذي عاشت فيه كلٌ منهن!

"إذًا فائقة.. أقصد الجدة فائقة هي حقيقة وكانت موجودة بالفعل!"

"لكن لماذا لم تحكِ لي جدتي عن عائلتها؟! لمَ لم تقل لي إن لنا أصولًا ملكية، أو أن أحدًا من أجدادي كان من الأمراء!"

ولا أعرف لمَ وجدت نفسي لم أعد أفكر إلا في معلمها هذا الذي يُدعى الحكيم علّام.. حتى أن طيفه أصبح يطاردني في كل زاوية من زوايا المنزل، كان يظهر فجأة ويختفي فجأة.. فتارة أراه مبتسمًا لي بنفس الابتسامة التي رأيتها على وجهه حين كان يحدث جدتي الأميرة فائقة، وتارة أخرى أراه



عابسًا وفي عينيه نظرة غريبة غاضبة.. كان يخيفني حقًا ولم أعرف إن كانت روحه هي التي تلاحقني أم أن من كثرة تفكيري به خُيل لي.. فكنت أتحاشى النظر إلى أي زاوية أو جهة بالمترل خشية أن أراه أمامي.. فاتخذت من النوم وسيلة أهرب بها من هذا الطيف الذي يلاحقني في كل مكان.. ولكني فشلت فقد تبعني في نومي أيضًا..

فقد رأيته في الحلم يقترب مني بنفس الابتسامة الباردة وهو ممسك بالمرآة في يده اليمنى وفي اليد الأخرى يحمل كتابًا كبيرًا يشبه ذاك الذي رأيته في بيته على المنضدة فأسمعه ينطق بكلمات لا أفهمها، ثم ما يلبث أن يختفي من أمامي فجأة.. ثم أراني وحدي أجري فزعة في طريق حالك الظلمة وكأن أحدهم يطاردني فلا أجد المفر من تلك الخطوات التي اسمعها تعدو مسرعة خلفي، لا أرى أي شيء من حولي، أحاول التقاط أنفاسي المتسارعة وقلبي يكاد ان يتوقف من الفزع..

فتحت عيني محملقةً في ذعر وضربات قلبي متسارعة وأنفاسي كذلك لأجد نفسي كما أنا على السرير في غرفة جدتي.. دورت بعيني من حولي لأتحقق أنني استيقظت بالفعل من هذا الكابوس الرهيب! وبعد أن هدأت واطمأننت أني بخير.. حاولت أن استرجع ما رأيت لكي أتذكر ما هي تلك الكلمات التي كان يقولها الحكيم علام ولم أفهمها رغم أن صوته أتى واضحًا لكن كلماته كانت مبهمة..

"ماذا الذي كان يقوله ؟"

***

11

اتخذت طريقي الذي اعتدته منذ عدة أيام إلى دار الكتب، وبدأت أكثف بحثي عن نفس الفترة التي كانت تعيش فيها الأميرة فائقة وهي نفسها الفترة التي كان لايزال الحكيم علّام يعيش فيها..

جلست أفتش في كل الكتب التي تخص تلك الفترة.. وكدت بالفعل أن أيأس من العثور على أية معلومة عنه..

وبينما كنت أقلب في الكتب التي على الأرفف لفت انتباهي عنوان لأحدها بدا شكله مألوفًا بالنسبة لي..

كان عنوانه طويلًا وغريبًا:

"أحكام النّفس والإنسان بين الحقيقة والهذيان"!

"ما هذا العنوان غير المفهوم؟!"

لكنني أشعر أنني قرأت هذا العنوان من قبل.. وكانت المفاجأة عندما قرأت اسم مؤلفه والذي سبقه بكلمة..

الفقير إلى الله «علّام بن سالم النوري» المولود في سنة 725 هجريًا 1304م.

لم أصدق عيناي وخاصة وأن تاريخ تأليف الكتاب المدوّن على الغلاف يشير إلى نفس الفترة تقريبًا التي عاشت فيها جدتي فائقة..

وسريعًا مرت أمام عيناي الكلمتان اللتان استطعت قراءتهما من على غلاف الكتاب الذي كان على المنضدة في بيت الحكيم علام..

"أليس هما نفس الكلمتين اللتين في آخر عنوان هذا الكتاب «الحقيقة والهذيان»! واسم صاحبه ومؤلفه «علّام بن سالم النوري» لا بد وأنه هو نفسه الحكيم علام.. معقول!"

نعم هذا هو نفس الكتاب الذي رأيته في المرآة وأيضًا هو الكتاب نفسه الذي رأيت علام وهو يحمله في الحلم والذي ومض أمام عيني للحظات سريعة مرة أخرى..

وعرفت بعد ذلك من خلال بحثي عن سيرته الذاتية أنه كان عالمًا ومؤرخًا.. ولم تكن أصوله مصرية، ولم يذكر المصدر جنسيته ولا من أي البلاد أتى! ولكنه اشتهر بمعرفته الواسعة في الكثير من أفرع العلوم مثل الكيمياء والفلك والطب والهندسة والرياضيات، وكان له العديد من المؤلفات في مجالات عدة، لكن الغريب أنه لم يصل إلينا منها إلا القليل.. كما ذاع صيته كذلك بين الطبقات الراقية آنذاك لقدراته الفائقة في السحر وعمل التعاويذ والتي كانوا يزعمون أنها تحمي من يقتنيها!

"إذًا ومن الجائز جدا أن تكون هناك عائلات أخرى غير عائلتي امتلكت وتوارثت أشياء كالمرآة أو غيرهَا تحمل تعاويذ الحكيم علام!"

حاولت أن أستعير الكتاب.. ولكني فشلت فالنسخ النادرة لا يمكن استعارها.. يمكن فقط الاطلاع عليها داخل المكتبة.. ولكنني اختلست عدة لقطات لبعض صفحات من الكتاب بهاتفي المحمول..

وعدت إلى منزلي تملؤني اللهفة والفضول لمتابعة الأحداث التالية في تلك المرآة العجيبة.. خاصة وأنني قد تأكدت أن ما أراه هي أحداثًا وقعت بالفعل لأشخاص حقيقين عاشوا في الماضي البعيد، وليسوا أشخاصًا من نسج خيالي أو هلاوس تلاحقني!

ونسيت تمامًا أنني لم أذق الطعام منذ ليلة أمس.. ولم يثنِي شعوري بالإرهاق الشديد وعدم النوم عن أن أرى! أرى الماضي..

أخرجت المرآة.. أمسكت بمقبضها الفضي وتركت نفسي لها..

أرى الأميرة فائقة هذه المرة مبتسمة الوجه غير حزينة وتطل من عينيها نظرات السعادة والأمل.. وأراها تقف أمام هذا الشاب الوسيم في الحديقة نفسها كان يمسك بيدها ويقربها اليه، بدا عليهم الألفة والانسجام.. ثم سمعته وهو يقول لها هامسا بصوت تملؤه عزوبة العاشقين:

– فائقة.. لا أكاد أصدق أنها بضعه أيام وستكونين زوجتي طوال العمر، أتمنى أن تكوني لي حتى آخر يوم من حياتي"..



- لا أريد أن تكون لي حياة بعدك يا «غالي» أريد أن نحيا معًا إلى الأبد دون فراق..

- لن أترككِ حتى لو كان الثمن حياتي..

وهنا توقفت المرآة فجأة عن السرد!

واستغربت ذلك فقد تلاشت صورهما وظهرت صورتي أنا عليها.. أخذت أهزها ظنًا منّي أنه أصابها عطل ما! لكن دون جدوى.. امتعضت كثيرًا من ذلك.. "ما هذه المرآة الغريبة! لماذا توقفت عرض الأحداث؟! أم أن خللًا ما أصابها؟"

استسلمت أخيرًا بعد عدة محاولات فاشلة لجعل المرآة تعاود العرض مرة أخرى.. وأخذت أقرض أظافري بأسناني في توتر وأنا شاردة بنظري خارج نافذة الغرفة أعيد على خاطري مشاهد المرآة مره أخرى.. وسؤال واحد يدور بذهني.. "لِمَ توقفت المرآة عن الحكي؟!"

"وهل هكذا انتهت المشاهد لا شيء أخر سأراه فيها.. ألن أتعرف على بقية أجدادي من خلالها؟ فأنا حتى لم أجرب إلى الآن تلك الخاصية التي تريني أي شخص أريد رؤيته في الحاضر.."

وعدت وعاتبت نفسي ساخرة.. فعلى من أجربها؟! فلا أذكر أن هناك أي شخص أهتم لرؤيته أو متابعة أخباره.. لا أحد على الإطلاق..

وفي لحظة خاطفة مر بخيالي صورة هذا الشاب الوسيم المهذب ذي العينين الخضراء، الذي كان يهتم لأمري بالجامعة وحاول كثيرًا التودد لي

لكنه لم يجد مني غير التجاهل.. لو كانت المرآة تعمل الآن لتطلعت لرؤيته بها.. من المؤكد أنه تزوج الآن وأصبح له أبناء.

لا أعرف لم خطر ببالي هكذا ولَم تذكرته برغم مرور كل تلك السنوات.. نفضت الفكرة عن ذهني.. فيبدو أننا نحن النساء لا ننسى أبدا رجلًا أهتم بأمرنا أو أذاقنا يومًا رشفة حنان..

لم أجد أمامي إلا أن أعود إلى شجرة العائلة للتفتيش عن اسم هذا الشاب الذي كانت تحدّثه جدتي فائقة ونادته باسم "غالي".

لم يكن من الصعب الوصول إليه حيث وجدت أن الأميرة فائقة تزوجت مرة واحدة شخصًا من أسرة نبيلة من الأتراك يدعى «غالي بك شوكت» وأنجبا بنتًا وولدًا "فريال وحسينًا".

إذا إنهما قد تزوجا بالفعل.. ويبدو أنها كانت قصة حب رائعة خلدتها المرآة.. قرأت كثيرًا عن قصص الحب في الروايات الرومانسية التي كنت أطلبها من بائع الجرائد والذي اعتاد أن يوصل لنا الصحف اليومية كل صباح.. كانت تلك الروايات هي ما يقطع عليّ وقت الفراغ الطويل الذي كنت أعانيه، فأعيش معها وأغوص في كل تفاصيلها.. ودومًا كنت أتخيل نفسي وذاك الشاب ذا العينين الخضراوين بطلين لكل تلك الروايات.. فتجعلني أعتقد أن العالم كله بالخارج.. خارج منزلنا، عالمًا حالمًا تملؤه الرومانسية والحب..

أمسكت بالمرآة في محاولة يائسة لعلها تعاود عرض الأحداث ثانية.. والغريب أني وجدتها بالفعل وقد بدأت في سرد الأحداث من جديد! استغربت كثيرًا لَمَ توقفت هكذا فجأة.. ولَمَ عادت للسرد من جديد؟

"عجيب أمرك أيتها المرآة!"

وهأنا مرة أخرى أرى حديقة المنزل التي بدأت اتيقن أنها هي نفسها حديقة منزلي..

تجلس الأميرة فائقة هي وزوجها غالي بك على ذلك المقعد الرخامي وقد طوقها بذراعه في حب وحنان، وتحمل طفلًا رضيعًا، وإلى جوارها فتاة صغيرة لم تتجاوز بعد عامها الرابع تلهو بدميتها الخشبية.. كانت الفتاة الصغيرة تشبهها إلى حدٍّ كبيرٍ، وكانت تناديها «فريال».. إنها اذا ابنتها التي جاء ذِكر اسمها في شجرة العائلة وان الطفل الذي تحمله بين يديها هو مولودها الثاني حسين..

يبدو أن الأحداث قفزت بي إلى عدة سنوات من بعد ذلك المشهد الرومانسي الذي رأيته منذ قليل بين فائقة وخطيبها غالي! يا لها من صورة جميلة للعائلة المثالية التي يظللها الحب والدفء والاحتواء! بالتأكيد أنهم عاشا سعيدين إلى آخر يوم في حياتهما كما كانوا يتمنيان..

"ولكن لَمَ تخطت المرآة كل تلك السنوات بسرعة؟!"

"ولماذا تريني تلك المشاهد المختصرة لحياتهم؟! وما الذي يهم في تلك الأحداث بالذات عن غيرها؟!"

ولكنني على كل حال أعتبر نفسي محظوظة.. فلا أحد يمكنه أن يرى أسلافه في حياتهم الماضية والتي قد مرّت عليها مئات السنين.. قبل اختراع كاميرات التصوير والفيديو..ويراهم وهم ما زالوا أطفالًا يلعبون ويلهون.. حياة لم أكن أعرف عنها أي شيء، ولا أذكر أنني في يوم من الأيام حاولت أن أتخيل كيف كان أجدادي أو كيف عاشوا..

ولا أعرف.. شعرت بغصة وكأنني أريد البكاء.. أرى الماضي وأري أشخاصًا يعيشون فيه كأنه حاضر أمامي.. وأنا أدرك كل الإدراك أنهم عاشوا وماتوا منذ زمن بعيد! ولولا تلك المرآة لم أكن لأعرف عنهم أي شيء أو أراهم.. مشاعر متضاربة متناقضة ما بين السعادة والشجن تتخبط بداخلي..

وبينما كنت ما أزال متخبطة بين مشاعري المتضاربة تلك.. رأيت المشهد يتغير أمامي في المرآة..

أرى جدتي الأميرة فائقة.. ممسكة بالمرآة تتطلع إليها! الى نفس المرآة التي أمسك أنا بها الآن.. أراها ثانية بهذا القرب، ففي المرة الأولى كانت بالحلم وأفزعتني.. وهذه المرة وجهها في وجهي تنظر لي عينها بعيني عبر المرآة!

***



12

إن قلبي ينتفض بقوة وأنا أرى عينيها في عيني وهي تحملق إليّ..

ولكن.. ما كل هذه الدهشة في عينيها؟! تعابير وجهها تبدو وكأنها مصدومة.. ظننت للحظة أنها تراني وأنها مصدومة لرؤية شخص غريب يشبهها.. وسرعان ما تذكرت أن المرآة لا تعرض المستقبل على حسب ما فهمت من حديثها مع الحكيم علام.. فهي لا تراني!

إذًا ما الذي تراه ويفزعها إلى هذا الحد؟!

تضع جدتي المرآة على المنضدة المجاورة لسريرها وهي لا تزال ذاهلة مصدومة من شيء لا أدركه.. ثم خرجت من غرفتها وهي تحمل مصباحًا صغيرًا يشبه إلى حدٍّ كبير لمبة الجاز لكنه أكثر أناقة.. كانت ترتدي ملابس نومها البيضاء الفضفاضة وشعرها تركته حرًّا طليقًا مبعثرًا في عشوائية..

تمشي ببطء مصطحبةٍ ظِلّها المنعكس على الحائط ووجهها وعيناها الذاهلتان في ترقب تظهر من خلف ضوء المصباح كوجه الأموات مصفر باهت اللون.. شعرت بالخوف منها وكأنني أرى أمامي شبحًا يتجول في

طرقات منزل مهجور.. وكدت أترك المرآة التي اهتزت في يدي.. ولكن الفضول لمعرفة ما يفزعها وما الذي تبحث عنه جعلني أكمل برغم كل شيء..

ووجدها تتخذ طريقها إلى السلم المؤدي إلى حجرات الخدم في الطابق الأرضي.. و تقترب بخطوات حذرةٍ من باب غرفة مستقرة في آخر الممر، كانت تجرّ في قدميها اللتين لم تكونا تقويان على حملها..

بصيص ضوء خافت يخرج من تحت عتبة باب تلك الغرفة، اقتربت أكثر.. وكلما كانت تقترب كان يتضح أكثر صوت همسات خافتة تأتي من الداخل، شعرت بأنفاسها الثقيلة مضطربة.. وبيدها المرتعشة تلوي مقبض الباب وتفتحه ببطء..

"ما هذا! زوجها «غالي».. في أحضان أخرى! يا ربي إنها نور! وصيفتها المقربة والوفية "نور"! "

كان الاثنان غائبين في عالم آخر من اللذة والنشوة.. حتى إنهما لم يشعرا بدخولها إلى الغرفة.. لم يشعرا بوجودها إلا حينما سقطت على الأرض مغشيًّا عليها..

مسكينة لم تتحمل تلك اللحظة القاسية.. أنا نفسي غير مستوعبة لما أراه.. وأشعر بالغثيان والاشمئزاز..



"فأين ذهب كل ذلك الحب والحنان الذي كان في عينيه وهو يحدثها؟ أين وعوده البراقة بأنه سيكون لها لآخر يوم في حياته؟ ألهذه الدرجة يستطيع الإنسان أن يرسم الصدق على مشاعره الزائفة.. وتصبح الأقنعة مقنعة؟!"

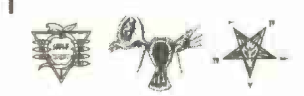
انطبعت قسوة تلك الصدمة على وجهها البريء فجمدت ملامحها، كانت ضربة عنيفة مبددة لأوهام الحب التي رسمها لها حبيب العمر، فكل شيء تهاوى أمام عينيها..

انتفض «غالي» و«نور» على صوت ارتطام جسدها النحيل بالأرض.. نظر كل منهما للآخر في فزع.. كيف لم يشعرا بدخولها إلى الغرفة.. وكيف عرفت أنه هنا في حجرة خادمتها؟! لقد انفضح سرهما.

سارعت نور لانتشال المصباح الذي وقع على السجادة وكاد أن يتسبب في حريق، فعالج غالي تلك الشعلة سريعًا بأن فركها بقدمه العارية فانطفأت.. ثم أمرها أن تحمل فائقة معه..

حمل الاثنان الأميرة المكلومة إلى غرفتها في الطابق الثاني.. وحاولا جاهدين ألّا يصدر عنهما أي صوت قد يوقظ الخدم وكل من بالقصر فتنتشر فضيحتهما.. صعدا بها إلى غرفتها ووضعاها في سريرها، وهي لاتزال فاقدة للوعي..

ينظر غالي في توتر إلى زوجته الملقاة على السرير دون حراك..أظنه كان يفكر كيف سيواجهها؟ وبأي حجة سيبرر لها ما رأته؟ وماذا لو أصرت



فائقة على الطلاق؟ بالتأكيد سينتشر الخبر بين العائلة كلها، وتضيع هيبته وتسقط سمعته إلى الحضيض، ومعها يفقد مكانته الاجتماعية المرموقة.. كانت نور هي الأخرى قلقة على مصيرها، متوترة تنظر إلى غالي وتنتظر منه حلًا ينقذهما من تلك الفضيحة.. وكيف ستواجه سيدها التي وثقت بها كل الثقة فما حجتها للخيانة.. كيف ستبرر لها خطيئتها.. وهل هناك تبرير من الأساس لم فعلت..

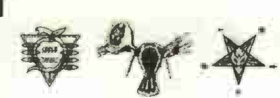
للحظات ظل شاردًا يفرك ذقنه بيده يفكر في توتر.. وفي لفتة مفاجئة نظر غالي إلى عشيقته نظرة غريبة! كأن خطرت بباله فكرة لامعة ستكون هي الحل لتلك الورطة.. وعلى ما يبدو أن نور أدركت ما تعنيه تلك النظرة..

اتجه غالي مسرعًا إلى نافذة الغرفة وفتحها على مصراعيها، كانت السماء حالكة السواد اختفى منها ضوء القمر وكذلك اختفت النجوم.. لا صوت على الإطلاق يبدد وحشة تلك الليلة غير أنفاسهم المتلاحقة وهمساتهم القلقة..

يتجه غالي عائدًا إلى السرير الذي ترقد عليه تلك المسكينة، ويأمر نور هامسًا أن تحملها معه مرة أخرى.. ولكن ماذا سيفعلان!

إنهما يتجهان بها إلى.. ما هذا!! لقد ألقوا بها من نافذة غرفتها..

أرى جسدها يهوي من نافذة قصرها ويهوي معه شبابها والحب الزائف والرحمة والإنسانية.. ارتطم الجسد النحيل بالأرض للمرة الثانية، لكن هذه



المرة دون حياة.. ماتت الأميرة.. قتلها زوجها ووصيفتها التي ظنت أنها الأوفى! وأقرب شخصين لها!

قُتلَت بلا لحظة رحمة، أو حتى تردد.. تخلصا منها ليدفنا سرهما معها إلى الأبد.. أو هكذا ظنا..

لا أصدق ما رأيت.. جدي قتل جدتي! خائن.. لقد أحبَّتك جدتي ووثقت بك.. تقتلتها؟!

ولم أتمالك نفسي من البكاء بحرقة وكأن ما حدث قد حدث للتو، أنا أيضًا صدمتي كبيرة.. أبكي جدتي فائقة وكأنني عشت وتربيت في كنفها سنين طوال، أحببتها وأحببت فيها النقاء والإخلاص.. كنت أشعر كلما رأيتها أن بداخلي جزءًا منها.. كانت تشبهني إلى حدٍّ كبير في كل شيء.. ظللت أيامًا طويلة لا أستطيع النظر إلى المرآة.. لم أكن قادرة على مواجهة تبعات ما حدث.. وكنت أفكر فقط فيما حدث بعد ذلك وكيف انتهي الأمر بهما..

إنه الفضول.. فضولي الذي كان يلح عليّ ويدفعني لكي أعرف ما الذي حدث بعد مقتلها.. هل انكشف أمر غالي أم أنه نجا بفعلته هو ونور؟! كنت أريد أن أشفي غليلي وأرى أنه قد نال جزاء جريمته..

بصعوبة بالغة بعد الكثير من التردد والجذب والشد بيني وبين نفسي تطلعت إلى المرآة وعيناي تغشاهما الدموع؛ فذلك المشهد اللعين لا يزال يتراءى أمامي في كل لحظة!

وفي المرآة بدأت الصورة بالظهور من جديد..

13

رأيته! انه هو الأمير غالي! يجلس بالحديقة وضاعًا قدما فوق الأخرى في ثقة وتعالٍ على نفس الأريكة الرخامية.. التي كانت شاهدًا على لحظات حبه الزائف وكلماته البراقة الخادعة.. كان لا يزال محتفظًا بأناقته وهيبته.. على ما يبدو أنه قد نجا بفعلته القذرة.. ولكن كيف؟! ألم يشكَّ أحدٌ بتلك الحادثة أو بطريقة موت زوجته؟ كيف مر الأمر هكذا..

وتجلس إلى جانبه شابة جميلة غاية في الرقة لم تتخطَّ بعد عقدها العشرين تشبه إلى حدٍّ كبير الجدة فائقة! وأمامها تلعب فتاتان صغيرتان لا تتعدان من العمر الثلاث سنوات وهما توأم على ما يبدو..

وسمعتها تتحدث إليه في مودة، وكان يناديها " فريال!"

آآه.. إنها جدتي فريال ابنة الجدة فائقة.. لقد كانت صغيرة جدًّا عندما قُتلت أمها.. ها هي أصبحت شابة وأمًّا لهاتين الطفلتين الجميلتين.. وعندما عدت واطلعت على شجرة العائلة عرفت أن اسميهما فاطمة وعائشة! وأن

فاطمة هذه هي نفسها صاحبة الرسالة الصفراء بالصندوق.. إذًا فاطمة هي ابنة فريال ابنة فائقة..

كانت فريال تنظر إلى والدها بكل هذا الحب والمودة!

"كيف استطاع غالي الخائن القاتل أن يخفي حقيقة موت فائقة!"

وسمعتها تقول بصوتها الخافت الرقيق:

»أبي.. هل لي أن أطلب منك طلبًا؟» يرد غالي في حنان شيطان متنكر وهو يتابع في سعادة التوأمتين وهما تلعبان أمامه:

– طبعًا حبيبتي.. لكِ أن تأمري وأنا أنفّذ..

– قد مرت سنوات طويلة على وفاة أمي.. وغرفتها لا تزال مغلقة منذ ذلك الحين لم يدخلها أحد..(يشيح بوجهه عنها في استياء، ولكنها تعود وتكمل قائلة: أعرف يا أبي أن هذا يؤلمك فقد كان فراقها صعبًا عليك، وأنك ما زلت تعيش على ذكرها ولم تنسَ حبكما إلى الآن»..

– (في امتعاض وضيق): ماذا تريدين يا فريال؟ لا أفهمك..

»أريدك أن تسمح لي أن أفتح غرفتها.. فهي بحاجة للتنظيف وأنا أيضًا بحاجة إلى أن أتشمم رائحة أمي الحبيبة وأستشعر طيفها فيها..

ينظر إليها بعينين زائغتين تخفيان وراءهما الكثير، وبعد تردُّد وبحزنٍ مصطنع وأمام نظرات فريال المتوسلة لم يجد أمامه حلًّا إلا الرضوخ لطلبها..

»أسمح لكِ يا فريال لكن أرجو أن تتأكدي من إغلاقها ثانية بعد الانتهاء من التنظيف، فأنا لن أتحمل أن أرى غرفتها وهي ليست فيها.. فقد كان انتحارها صدمة لنا جميعًا..

"يا لك من شيطان!" » هكذا وجدت نفسي أقول تلك الكلمات في غيظ مكتوم.. لقد ادعى أنها انتحرت.. وألقت بنفسها من النافذة.. هكذا استطاع أن ينجو بفعلته بكل سهولة!

وتهلّل وجه فريال البريء بابتسامة يملؤها الحنين إلى والدتها التي لا تزال تذكر ملامح وجهها الجميل وابتساماتها الناعمة لها وهي طفلة تلهو بين يديها..

اقتربت فريال من باب الغرفة المغلقة والشاهدة على تلك الجريمة البشعة.. ولكن لم تكن بالطبع وحدها الغرفة هي الشاهد الوحيد على هذه الجريمة!

وبعد كل تلك السنوات الطويلة من العزلة ينفتح باب غرفة الأميرة فائقة.. الغرفة كما هي.. الأشياء كلها في موضعها وكما تركتها فائقة في تلك الليلة المشؤومة، حتى السرير لم تلمسه يد طوال هذه السنوات، فمفرش السرير لا يزال على حاله غير مرتب.. غير أن الأتربة انتشرت على كل شيء بالغرفة.. يبدو أن الزوج المكلوم! أمر بإغلاق الغرفة فورًا بعد انتحار زوجته كما ادعى.. فهو لا يتحمل أن يرى غرفتها وهي ليست فيها!

تتجه فريال إلى النافذة وتفتحها ليدخل الهواء مجددا إلى الغرفة المعبأة برائحة الماضي، ووجدتني أرتجف من داخلي وتساقطت دموعي رغمًا عنّي وأجهشت بالبكاء حتى تقطعت أنفاسي.. كان قلبي يخفق بشدة في تلك اللحظة التي فتحت فيها فريال النافذة..

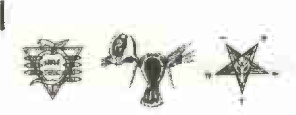
فآخر مرة فُتِحَت فيها هذه النافذة كانت لكي يلقي غالي ونور بفائقة جدتي منها..

بدأت الخادمات يدخلن إلى الغرفة وهن يحملن المقشات وأدوات التنظيف..كانت فريال تقف في وسط الغرفة وعلى وجهها ابتسامة حنين ممزوجة بشجن، تنظر إلى كل ركن فيها وهي تستدعي ذكرياتها القليلة مع والدتها الحنون، تقف أمام سريرها المذهب وتنظر إلى اللوحة الكبيرة فوقه والمرسومة لوالدتها وشعرت كأني أقف بنفس الغرفة خلف فريال نتطلع معًا إلى اللوحة وإلى هذا الوجه الملائكي.. كم كان جمالها أخاذًا حقًّا!

وتسألت أنا الأخرى كما تسألت فريال..

"أكانت تستحق هي أن تموت بمثل هذه الطريقة؟!" وكلٌّ منا كان يدركُ مقصده..

وعندما همّت فريال بالالتفات إلى باقي تفاصيل الغرفة.. لمحت عيناها المرآة الفضية فوق المنضدة.. كانت كما تركتها والدتها في الليلة الأخيرة وقد غطاها الغبار.



مدت يدها إلى المرآة.. فانتابتني حالة من الفزع.. أشفقت عليها من هول الصدمة عندما ستخبرها المرآة بحقيقة موت والدها..ووجدتني أناديها وكأنني على يقين أنها ستسمعني..

« إياكِ.. إياكِ أن تنظري اليها.. أبعديها عنك.. اتركيها» وفي نفس اللحظة وجدت المرآة تهتز بقوة في يدي بغير إرادة مني أخذت الصورة تومض وتختفي أمامي.. اهتزت بعنف كأنها توبخني على ندائي لفريال وتحذيري لها، وكأنها غضبت مني لمحاولتي التدخل في سير الأحداث أو تغييرها.. خفت فعلًا.. خفت من المرآة..

بدى لي هذا كإنذار لكي لا أعترض مرة أخرى على ما أراه وجلست في صمت أتابع الأحداث بترقب..

على كل حال كانت محاولة فاشلة مني لكي أمنعها من الاقتراب من المرآة.. كان هذا دون جدوى فهي من زمن وأنا من زمن آخر تفصل بيننا العشرات والعشرات السنين.. عقود طويلة، وكل تلك الأحداث التي أراها وقعت بالفعل وانتهت منذ زمن بعيد

"مسكينة يا فريال ستكون الصدمة قاسية عليكِ جدًا.. فما سوف ترينه وما سوف ينكشف أمامك من حقائق مرير ومؤلم.."

استسلمت بيأس وتابعت في أسى وأسف على حال تلك المسكينة..

***

14

أخذت فريال تزيح الغبار عن المرآة بيدها، فيظهر لها بريقها شيئًا فشيئًا!

وما هي إلا لحظات حتى رأيت وجهها وقد علت عليه تلك النظرة والتي لم تكن بغريبة عليّ.. إنها نفس النظرة التي ارتسمت على عيني حين نظرت إلى المرآة لأول مرة ورأيت صورة جدتي فائقة أمامي، أما بالنسبة لفريال فالموقف كان أكثر تعقيدًا فهي لا تزال تعيش داخل الحدث.. والغريب أن المرآة لم تحكِ لها كيف حصلت والدتها على المرآة ولم تذكر لها شيئًا عن الحكيم علام! واكتفت فقط بأن تعرض لها هذا المشهد المروع عندما اكتشفت فائقة خيانة غالي أبيها لوالدتها ثم مقتلها بيده هو ونور..

مرّ وقت وهي تنظر إلى المرآة غائبة عن ما حولها.. وفجأة صرخت فريال في هلع وهي لاتزال تمسك بالمرآة وفي عينيها ذلك الفزع.. كانت صرخة مدوية اخترقت قلبي وكادت أن تتشقق لها الجدران في الحاضر والماضي حزنًا معها وعليها..

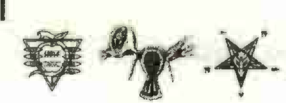
وكان آخر ما رأته والدها يلقى بأمها من النافذة، تنظر حولها بهلع محملقة، وقد احمرت مقلتاها، وكأنها تتمنى أنها لو كانت في كابوس..

لتجد الخادمات ينظرن إليها في دهشة واستغراب.. غير مدركات لما يحدث.. تخرج فريال مهرولة إلى غرفتها.. والمرآة لا تزال في يدها.. تغلق خلفها الباب بالمفتاح وهي تصرخ باكية وتستمر بالنظر إلى المرآة وهي تتلقى هذه الحقيقة المريرة المخزية.. وتابعت المرآة عرض مشاهدها المؤلمة وحكت لها كيف اختفت نور أيضًا!

علم غالي من الخدم بما حدث فيتجه مسرعًا إلى غرفتها ويطرق على الباب طرقات متتالية سريعة.. تنظر فريال فزعة وهي تسمتع إلى صوت أبيها يأتي إليها من خلف الباب.. الآن أدركت فريال الحقيقة.. حقيقة موت أمها.. إنها لم تنتحر بسبب الاكتئاب كما قال لها أبوها.. بل كان هو الفاعل.. كان هو القاتل..

لم يجد غالي حلًا إلا أن يكسر باب الغرفة، وبعد عدة محاولات هو وبعض الخدم ينكسر الباب ويدخل غالي إلى الغرفة وخوفه عليها يتملك كل ذرة بجسده.. تسقط المرآة من يد فريال إلى جوار السرير دون أن يلحظها غالي.. كان مشغولًا بابنته التي تنظر إليه بنظرات فزعة وهي محملقة العينين في ثبات.. تنظر إليه وكأنها لا تعرفه..

اختفت تلك النظرة الودود التي كانت تملأ عينيها منذ قليل حين كانت تجلس إلى جواره في الحديقة.. وقد حلت مكانها نظرة غريبة حقًا.. نظرة جنون!



ظلت فريال على هذه الحال عدة شهور لم يتوانَ غالي فيها أن يحضر لها الأطباء من كل مكان، لم يترك باب إلا وطرقه، ولم يستطع أحد أن يعرف ماذا حدث للفتاة عندما كانت تقف هناك في غرفة أمها..

كانت تمهم بكلمات غير مفهومه طوال الوقت بنظراتها الفزعة تارة والذاهلة تارة أخرى، وأحيانًا أخرى كانت تصرخ وفجأة دون أية مقدمات..

شخَّص بعض الأطباء حالتها على أنها نوبه عصبية أصابتها جراء عن صدمة عنيفة تعرضت لها.. والبعض الآخر شخَّص حالتها بالجنون!

انكسر قلب غالي على حال ابنته.. كانت ضحكتها ملء السمع والبصر وفجأة ينقلب الحال.. ساد الاعتقاد بين الجميع أن فريال أصيبت بالجنون.. وحاول "فاضل" زوجها أنا يتكلم إليها وأن يحصل منها على أي معلومة يستطيع من خلالها مساعدتها على تجاوز تلك الحالة، لم يتلقَّ منها سوى الصمت ونظرات الذهول التي أصبحت تعبيرًا دائمًا على ملامح وجهها..وظلت هكذا لعدة شهور..

بالطبع لم يكن يعرف أحدٌ بأمر المرآة إلا فائقة نفسها حتى وصيفتها نور لم تكن تعرف عنها شيئًا.. ولكن الغريب في الأمر أن نور نفسها لم تكن موجودة ضمن كل هذه الأحداث! "أين ذهبت؟!"

عرفت فيما بعد من المرآة كما علمت فريال أين اختفت نور!

***

15

كانت نور قلقة بعد تلك الحادثة.. قلقة من مصيرها إذا ما اكتُشفت حقيقة موت فائقة من ناحية.. ومن ناحية أخرى قلقة من غالي نفسه.. فهي لم تعد تأمن على نفسها معه، لقد قتل زوجته بدم بارد وبلا تردد.. وشاركته هي نفس الجرم.. وكانت الشاهد الوحيد عليه.. لكن جزءاً منها كان يخالفها الرأي، شيئًا ما داخلها يخبرها بأنه يحبها، بل ويعشقها.. وأنه لن يستطيع الاستغناء عنها، وإن ما فعله كان لحمايتها وحمايته.. ولو كان أمامه خيار آخر لما أقدم على قتل فائقة أبدًا.. فهي على العكس لم تشعر ابدا بأي تغير في معاملته لها ولا مشاعره تجاهها، بل شعرت أنه زاد ولَهًا وهياما فيها.. فلا تمر ليلة إلا ويطلبها إلى غرفته أو يذهب هو إليها.. حتى أنه لَمّح أليها أكثر من مرة في حديثة معها بالزواج.. لكنه فضَّل أن يُرجئ الأمر عامًا على الأقل حتى لا تتجه الشكوك إليهم.. وذات مساء أفضى اليها أنه يشعر ببعض الضيق ويريد أن يتنسم بعض الهواء معها بعيدًا.. فطلب منها أن يصطحبها معه في نزهة قصيرة بعيدًا عن القصر وجوهُ الخانق وكذلك ليكونوا على راحتهم بعيدين عن أعين الخدم..



تحركت العربة بهما وسط ظلام كثيف.. كانت ليلة تشبه تلك الليلة المشؤومة التي قتلت فيها فائقة لا قمر ولا نجوم تبدد ظلمتها وقد حرصا ألا يراهما أحد، فأمن له حارسه الخاص" أمين " وكاتم أسراره خروجه من أحد بوابات القصر الخلفية.. فكان هو أيضًا من يقود لهما العربة زيادة في الحرص.. اتخذوا طريقهم قاطعين الشوارع والحواري الضيقة للقاهرة حتى وصلا إلى أعلى هضبة المقطم، فتوقف بهما عند أعلى نقطة منها.. ترجل كلاهما منها وأخذا يتمشيان قليلًا مبتعدين عن أعين الحارس الذي ظل جالسا في مكانه بمقدمة العربة لم يتحرك.. كانت تتأبط ذراعه في احتواء اشعرها بسكينة و سلام من داخلها وكان هو على العكس شاردا متعمقًا في التفكير.. وبعد مسافة قليلة توقفا عند حافة الهضبة .. كان المنظر من أعلى غاية في الروعة برغم الظلام.. نظرت نور إليه في حنان وهي تقول له:

- "فيمَ الشرود حبيبي؟"

لم ينظر لها بل تابع النظر أمامه متأملًا الفراغ وسحبها برفق من يدها وجعل ظهرها إليه واحتضنها بكلتا ذراعيه.. وقال هامسًا في صوت هادئ:

- "انظري.. تأملي معي في هذا الفضاء المثير..ألا يدعو ذلك للشرود في اللاشيء!"

فهامت معه في تأملاته، ولكنها ما لبث أن فاجأها بدفعة قوية بكلتا يديه.. فلم يسعفها جسدها النحيل في تمالك نفسها أمام تلك الضربة الغادرة القوية.. ففقدت كل اتزانها ولم تستطع التعلق به حتى.. فسقطت

من فوق الهضبة العالية تتلقفها الصخور حتى استقرت أخيرًا بالقاع جثه ممزقة فقدت معالمها..

لم تتعلم الدرس من تجربتها معه وصدّقته! كان يجيد تزيف المشاعر والتلاعب بالعقول والقلوب.. أعطاها الأمان إلى أن سنحت له الفرصة للتخلص منها حتى لا تشكل تهديدًا له أو لأولاده فيما بعد.. فذهبت غير مأسوفٍ عليها.. وقد ظنّ غالي بذلك أنه أخف جرائمه كلها وزاده اطمئنانًا كذلك مرور السنوات، وأن أحدًا لم يشك به أبدًا..

ذات صباح استيقظ كل من في القصر على خبر مفجع.. وفاة الأميرة فريال! ماتت وهي نائمة في سريرها هكذا وجدوها..

صعدت تلك الروح المعذبة إلى السماء ومعها سر عذابها..

قاموا بدفنها إلى جوار والدتها الأميرة فائقة ووالدها غالي بك في مقابر الأسرة.. الغريب أن غالي مات هو الآخر قبل أيام قليلة من موت ابنته.. عثروا على جثته ملقاة بالحديقة محطم الرأس غارقًا في دمائه..

قامت الشرطة بالتحقيق مع كل من بالمنزل، لم يتركوا أحدًا إلا وقاموا باستجوابه، ولكنهم لم يتوصلوا لأي خيط يقودهم لكشف ملابسات الحادث! فأصبح موته لغزًا للجميع.. ولكنه لم يكن لغزًا بالنسبة لي..

فلقد أخبرتني المرآة كيف مات غالي!

ابنته فريال.. هي من قتلته! نعم إنها فريال.

***



16

في ليلة وقبل وفاتها بأيام قليلة قامت من رقدتها الطويلة بلا مقدمات كانت تمشي بطريقة آلية ذاهلة ولا تعابير واضحة على وجهها الجامد.. اتجهت إلى غرفة والدها، ودون أن تطرق الباب فتحته في هدوء غريب.. كان غالي جالسًا على الكرسي بجوار النافذة المفتوحة مستمتعًا بنسمات الهواء يقرأ في أحد الكتب.. اندهش فرحا عندما وجدها تقف أمامه.. ظن أنها شفيت وتحسنت حالتها أخيرًا وأتت لتراه..

كانت سعادته لا توصف..

اقتربت منه في براءة، وما زال وجهها الطفولي جامدًا لا يدل على شيء.. ثم اقتربت من النافذة وأسندت يديها عليها وأطلت برأسها منها تنظر إلى شيء ما في الحديقة.. ثم عاودت النظر إلى والدها الذي لا يزال واقفًا في مكانه يحاول تفسير تصرفها فوجدها تشير إلى الأسفل كأنها تريد أن تخبره عن شيء ما! اقترب بدوره من النافذة يحاول في اهتمام اكتشاف الأمر.. فقام بإلقاء نظرة بالخارج ليعرف ما الذي تريده أن يراه.. لكنه لا

يرى شيئًا ولا يفهمها.. فتشب هي على اطراف قدميها وتعاود النظر مرة أخرى بنفس الطريقة وتشير مرة أخرى إلى أسفل.. فيضطر هو للخروج بجسده أكثر من النافذة ليرى ما الذي تشير إليه ابنته ويقلقها.. وحين كاد رأسه وجذعه أن يتدليا من خارج النافذة وفي تلك اللحظة وقفت فريال وقد تحولت نظرتها الجامدة الذاهلة إلى نظرة جنون تحملق وهي تبتسم ابتسامة مخيفة.. وبقوة عجيبة لا تتناسب وجسدها الرقيق.. دفعته بكلتا يديها فاختل توازنه ولم تسعفه المفاجأة من التعلق بإطار النافذة أو تفادي السقوط.. فارتطم بالأرض ميتًا على الفور محدثًا صوتًا قويًا.. تابعته فريال وهو يسقط وفي عينيها بلادة غريبة.. وعندما استقر جسده على الأرض تراجعت عن النافذة

وقد اختفت نظرة الجنون الباسمة تلك لتعود ملامحها الصامتة لتكسو وجهها الذابل.. وقبل أن تغادر الغرفة القت نظرة على الكرسي الذي كان يجلس عليه والدها منذ لحظات وكذلك الكتاب الذي تركه مفتوحًا.. ثم خرجت من الغرفة بكل هدوء وأغلقت الباب وراءها وعادت إلى غرفتها كأن شيئًا لم يكن..

بالطبع لم يشك أحدٌ بها على الإطلاق فالجميع كان يعرف أنها مريضة لا تقوى على الحركة ولم تغادر غرفتها منذ شهور طويلة..

أُغلقت قضية موت غالي على أنها انتحار! وماتت هي بعده بعدة أيام وكأن روحها المعذبة قد هدأت أخيرًا بعدما ثأرت لأمها..



بعد وفاتها أمر زوجها "فاضل" الخدم بوضع كل ما يخصها في صناديق وغلقها بإحكام وتخزينها بالقبو أسفل القصر خوفًا من أن تصاب بنتاه فاطمة وعائشة بمثل ما حدث لزوجته الجميلة.. ظنًّا منه أنها أصيبت بالجنون عندما دخلت غرفة والدتها وتفحصت أغراضها وتذكرت حادثة موتها.. هكذا ظنوا جميعًا.. وبالفعل خُزنت أغراضها جميعًا بما فيها المرآة.. التي لم يشكّ أحدٌ بأنها هي السبب لكل ما حدث! وضعت بالصناديق دون أن يعيرها أحد أي اهتمام..

بعد ذلك لم أرَ في المرآة إلا صورًا متتالية لأحداث عادية ووجوه لسيدات وأحداث موت.. وميلاد.. وزواج.. وأفراح.. وأحزان كلها أحداث عادية جدًّا.. على ما يبدو أنها الفترة التي قضتها المرآة مستقرة في القبو.. داخل الصناديق ولكنها سجلت كل الأحداث..

والغريب أن الذي ما زال لا يفارقني بعد هو الحكيم علام نفسه الذي أصبح طيفه يلاحقني في اليقظة وفي الحلم، كانت أحلامي به تتكرر كل يوم وآخرها كان بالأمس..

رأيته يقف في أحد ممرات قصر الأميرة فائقة بصحبة الوصيفة نور، كانا يتحدثان همسًا في حرص يشوبه القلق حتى لا يسمعهما أو يلحظ وقوفهما أحد.. ورأيتها تعطيه كيسًا صغيرًا من القماش، فأخذه ودسه بين ثنايا ثيابه الفضفاضة.. لم أعرف ما الذي بداخلة ولكن صوتًا أو هاتفًا ما قال لي إن ما به يخص الأميرة فائقة.. ثم تحول بعدها المشهد بالحلم مرة أخرى إلى نفس النهاية السابقة.. كنت أجري بكل ما أتيت من قوة في

نفس الطريق الحالك الظلام ومن خلفي شيء ما أسمع نقر خطواته المتسارعة وهو يُصر على اللحاق بي.. استيقظت فزعة ألتقط أنفاسي بصعوبة، وبعد أن هدأت واستفقت واستعدت تركيزي..

قمت متثاقلة إلى المطبخ وأعددت كوبا كبيرًا من القهوة، كان اليوم شديد الحرارة.. أدرت مروحة السقف وجلست أقلب في التلفاز على غير هدى.. كنت مشغولة عنه بالتفكير في الحلم وفي علام هذا.. فتذكرت تلك الصور التي التقطها لبعض صفحات من كتابه بالمكتبة ذاك اليوم.. فأسرعت وفتحت هاتفي المحمول وأخذت أفتش عن الصور..

كانت ثلاث لقطات لصفحات مصفرة اللون قديمة يظهر بها كتابات بألوان تتباين ما بين الأحمر والأسود والأخضر.. حروفها غير مفهومة وكأنها حروف عربية ولاتينية كُتبت بالأسود تشابكت معًا دون فواصل بلا نقط أو علامات، وعلى هوامش الصفحات رسومات عديدة باللون الأحمر تشبه تلك الأشكال التي كانت موجودة على حائط بيته.. فكنت أقلب الصور وأعيد النظر إلى كل واحدة عدة مرات.. وفي الأثناء لفت انتباهي شكل يبدو أغرب أنه من باقي الأشكال الأخرى لم أفهمه في البداية.. وبعد أن دققت أكثر اكتشفت أنه شكل مرسوم بالمقلوب على عكس كل العلامات والكلمات والرموز الأخرى! فأدرت الهاتف في يدي لأتحقق منه كان صغيرًا، لكنه رسم بعناية ودقة قمت بتكبير الصورة أكثر.. مما أتاح لي فحصها والتمعن بها فاتضح لي..أنه رسم دقيق لرحم! وبداخله وبإحدى قنوات فالوب وبالتحديد على يسار الشكل رسم لجنين صغير

يقبع متكور على نفسه تكاد تكون أعضاؤه جميعها واضحة.. وحول الرحم التفت أفعى طويلة لعدة مرات محكمة سيطرتها عليه ويبدو أنها تطلق من فمها نارًا!

غريب جدًا.. وكذلك تلك الرسوم جميعها مخيفة ومنظر الأفعى وهي تحيط بالرحم وكأنها تتوعد هذا الجنين القابع بالداخل وهو لا حول ولا قوة له..

وكالعادة اتجهت مسرعة إلي صندوق المرآة وأخرجتها وبدأت أتطلع إليها..

***

17

ومن جديد بدأت صفحتها تموج أمامي كان المكان ممتلئًا بالناس.. بهو كبير وبه الكثير من المدعوين على ما يبدو لحفل كبير فخم.. صوت الموسيقا الشرقية ليس بغريب على أذني.. تشبه كثيرًا الموسيقا التركية، تعزفها فرقة اتخذت زاوية ملائمة من البهو مكانًا لها.. كانت معظم الآلات الموسيقية آلات وتريه كالقانون والعود، وهناك أيضًا شخص آخر من الفرقة يمسك برق صغير يضرب عليه بصورة منتظمة بين الحين والآخر وأمامهم تجلس سيدة أظن أنها المطربة تستعد للبدء بالغناء، وباقي الضيوف إما جالسون أو واقفون وجميعهم يثرثرون في صخب مزعج عكر صفو تلك الألحان البديعة.. وبين الحضور سيدة يبدو أنها صاحبة الحفل.. تتنقل بينهم في رشاقة كالفراشة رغم وزنها الزائد ترفل في ثوبها الفضفاض بلونه البرتقالي الفاقع والذي تماشى تمامًا مع لون بشرتها البيضاء الصافية واكتفت بوضع وردة بيضاء بشعرها البني المتومج.. وارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة تحي وترحب بالجميع.. كان الحفل يشع بالبهجة والسعادة.. فانسجمت كثيرًا من جو الحفل الأنيق..

"لكن ما هذا الذي أراه!"

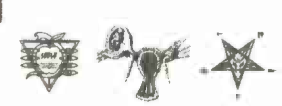
إنه هذا الرجل الذي يقف هناك في الزاوية وكأنه يتوارى عن الأنظار، إنه هو.. هو نفسه الشاب الذي رأيته واقفًا على الطريق يتلفت من حوله ذاك اليوم عندما كانت عربة الأميرة فائقة تمر بجواره في طريقها إلى بيت الحكيم علام.. ويرتدي الملابس نفسها لا أخطئه أبدًا، فأنا أميزه بلحيته وشاربه ونظارته الغريبة المستديرة.. كان يبدو كأنه يبحث عن شخص ما بين الحضور.. وما هي إلا لحظات حتى ظهرت العروس ومعها والدها يمسك بذراعها فتعالت الزغاريد وصفق الحاضرين، ثم تقدم شاب وسيم أنيق، ببدلته الرسمية السوداء وفي سعادة تسلم عروسه من يد أبيها المهيب.. وحاولت التدقيق أفتش عن هذا الشاب ذي اللحية بين الحضور لكنه اختفى!

وفي وسط كل هذا وبرغم الزحام وتعالي الأصوات المختلطة بصوت الموسيقى والغناء سمعت أحدهم يقول للذي إلى جواره هامسًا..

- بالتأكيد إن حشمت محظوظ بجوازه من نائلة هانم يكفيه أنها بنت جودت باشا واحد من أهم قادة الجيش العثماني .."

- هو سافر إلى إسطنبول من هنا ولم يكذب خبر وعاد بالعروسة في يده من هنا .."

- ألم أقل لك إنه محظوظ.. ليس ببعيد أن نسمع قريبًا أنه أصبح رئيسًا للوزراء"



وقبل أن ينتهي حديث هذين الرجلين وأنا في قمة انتباهي ومتابعتي أحاول الإنصات إلى كلماتهما التي بدت خفيضة.. توقفت المرآة عن العرض!

"يال تلك المرآة المزاجية فعلتها مرة أخرى!"

تُوقفت الأحداث السعيدة فجأة وتقطعها كعادتها بلا سابق إنذار.. وكالمرة السابقة حاولت التحايل عليها لتبدأ العرض من جديد لكن أتت محاولاتي دون جدوى، وأعدت على نفسي حديث الرجلين.. كانا يتحدثان عن العريس " حشمت " المحظوظ! بزواجه بـــ"نائلة هانم" ابنة قائد كبير في الجيش العثماني يدعى جودت باشا.. لم أكذب الخبر وبالطبع عدت إلى شجرة العائلة لأتفحص الأسماء والصلات.. فلم أجد غير حشمت واحد فقط.. انه ابن الجدة فاطمة! صاحبة الرسالة، وأنه تزوج بسيدة تدعى نائلة.. إذًا السيدة التي كانت ترتدي الثوب البرتقالي وترحب بالضيوف هي بالتأكيد الجدة فاطمة.. وأخيرًا ظهرت صاحبة الرسالة والسيدة الوحيدة من بين كل نساء المرآة التي فضلت أن تترك رسالة لمن تليها ولا أحد يعرف لَمِ اضطرت لذلك.. فلقد ذكر علام لفائقة أن المرآة ستتولى إخبار من ترثها بكل شيء..

وهنا أيقنت أن المرآة ستعاود الحكي من جديد، وبالفعل تطلعت إليها وبدأت هي السرد!

لكن المشهد اختلف.. رأيت حشمت يقف مرتبكًا خجلًا أمام نائلة التي تبكي بقلب مفطور! محاولًا تهدئتها ويبدو أنه يبرر لها شيء ما وهي ترفض منه أي محاولة للتبرير ولا تريد سماع أي كلمة.. فسمعته يقول:

- لك الحق أن ترفضي النظر إلى وجهي، وألا تطيقي سماع صوتي.. ولن أقول لك إنني لست مخطئًا.. أنا..

- أنت إنسان مخادع وخائن لم تفكر بي ولا بعائلتك ولا مركزك.. أنك حتى لم تفكر في ابنتك ليلى التي أصبحت الآن عروسًا.. كيف ستواجهها لو علمت بالأمر؟

يطأطئ رأسه مخذولًا والندم يكاد أن يفتك به.. فكلمات نائلة تنزل على رأسه كالحجارة تدميه..

كانت بالفعل ساعة ضعف وإحساس بالارتياح والمحبة لهذه الفتاة الصغيرة "صفية" الرقيقة كالملاك والتي تعمل خادمة لديهم منذ أن كانت طفلة، أتى بها والدها اليهم من بلدتهم البعيدة الغارقة في الفقر والجهل.. لم يستطع حشمت مقاومة تلك العينين الناعستين وجهها الهادئ، ولا تلك البساطة والسكينة التي افتقدها في زوجته نائلة المتكبرة المتعجرفة والقوية بأبيها صاحب النفوذ واليد الطولى لدى الباب العالي.. كان حبه لصفية هربًا إلى السكينة والألفة المُفتَقدة، ولكن الأمر انقلب عليه كما لو أنه لم يحسب له حساب.. لقد حَملت صفية منه بطفل وهي الآن في شهرها السابع.. ظهر عليها حملها الذي حاولت جاهدة إخفاءه عن أعين الجميع فلم تجد لها مفرًا من الفضيحة وانكشف أمرها.. تلك المسكينة ضحية

مجتمعها وبيئتها كانت حائرة ضائعة يتنازعها الخوف فهي لن تستطيع العودة إلى بلدها وكيف تعود! فبالتأكيد سوف يقتلها أبوها دون تردد ولا رحمة.. ومن ناحية أخرى كيف ستواجه سيدها التي لا ترحم وكذلك ابنتها القاسية.. ما الذي سيفعلانه بها.. لكن أين المفر؟

أردفت نائلة في عصبية قائلة:

– هل تستطيع أن تقول لي ماذا ستفعل الآن؟ الخادمة حامل من الباشا المحترم وشارفت على الولادة.

وفي الأثناء لمحت داخل المرآة فتاة تقف خلف الباب تنصت إلى الحديث، عرفت فيما بعد أنها ليلى ابنتهما.. فحين رأتها نائلة ارتبكت.. بدا لي من النظرة الأولى أن ليلى هذه قوية الشخصية وليست بالهينة على الإطلاق رغم صغر سنها، فهي لم تتعدَّ السابعة عشرة بعد..

لكن من ينظر إلى عينيها الزرقاوين يجد فيهما حدة وقوة وذكاء، ولها أيضًا هيبة وحضور.. اقتربت ليلى منهم بكل ثقة وجدية ونظرت لأبيها نظرة حادة فاحصة.. نظرة أخافتني برغم جمال عينيها إلا انهما بدت كمياه المحيط غامضة عميقة بلا قاع أو مستقر.. جميلة هي حد الرعب إذا أطلتَ النظر إليها.. والغريب أن حشمت بدا كأنه يهابها!

فعلى ما يبد أن البنت ورثت عن والدها القوة والعجرفة والتكبر.. وكأن الأب لم يجد ملجأ له من هذه الوحدة واحتياجه إلى الحنان والألفة والحب الذي لم يجده إلا لدى صفية البسيطة الرقيقة والطيبة، فهرب إليها بقلبه وروحه..



وبعدما أطالت ليلى النظر إليه قالت في جدية وحزم:

- هل ما سمعته صحيح؟.

لم ينطق حشمت بأي كلمة كان كالتلميذ الخائب الذي تعنفه والدته حين يرسب في الامتحان.. ثم عادت وكررت سؤالها في عصبية تحاول كتمانها

- أجب عليَّ يا أبي هل ما سمعته صحيح!.

فقاطعها ورعشة في صوته

- أنا لم أخطئ، ولم أفعل شئًا يخجلني، والدك رجل محترم يا ليلى.. أنا تزوجت صفية.

لم تستوعب ليلى ولا نائلة ما قاله حشمت فالمصيبة أكبر.. الزواج إذًا رسمي والطفل القادم مُعترفٌ به وسيكون له حق في ميراث أبيه الكبير.. هكذا كانتا تفكران.. أو على الأقل هذا ما كان يهمهما..

وبعد لحظات من الصمت تحول المشهد ببطء أمامي إلى مكان ووقت آخرين..

إنها حجرة نوم عادية وضيقة بها بعض الأثاث البسيط لا يتعد كرسيًّا واحدًا ومنضدة وسريرًا صغيرًا، وبالغرفة نافذة واحدة استطعت أن أتحقق من خلف ستائرها الرمادية الشفافة أنها تطل على إحدى طرقات حديقة القصر.. وأتاني صوت سيدة وكأنها تتألم وتعاني بشدة فدارت الصورة بالمرأة لتكشف لي أنها صفية خادمة نائلة وزوجة حشمت!

كانت تحاول أن تكتم صرخاتها وهي تضغط بقوة على فكيها، والقابلة تحاول مساعدتها لكي تلفظ جنينها العالق متشبثًا بأحشائها وكأنه يأبى الخروج.. ورأيت كذلك نائلة هانم وليلى ابنتها تقفان إلى جوار السرير في تحفز وترقب تتبادلان النظرات مع القابلة من حين إلى آخر.. كانت صفية تكافح بكل ما أوتيت من قوة لتمنح مولودها حياة تمنت أن تكون أوفر حظًا وأفضل مما عاشته هي.. وبعد دقائق طويلة من الألم والترقب.. سمعت بعدها صوت بكاء الطفل يتردد معلنا عن قدومه.. فقالت القابلة:

- إنه صبي.

ثم حملته إلى حوض الماء لتنظيفه وتبعتها ليلى وبقيت نائلة واقفة تنظر في حقد وكراهية إلى صفيه المنهكة الغائبة عن الوعي.. وعندما انتهت القابلة من تنظيف الوليد ووضعته ملفوفًا بغطاء أزرق صغير إلى جوار أمه النائمة في إنهاك.. اقترب المشهد أمامي أكثر.. فرأيت ليلى تنظر إلى أمها نظرة غريبة فيها الكثير من الخبث.. ثم نظرت إلى الطفل الذي ما زال يبكي باحثًا عن ثدي أمه.. فمدت يديها إليه ووضعتها على وجهه الصغير.. وظلت مطبقة بكفها على كل وجهه حتى انحبست أنفاسه المعدودة..

كنت أرى يديه وقدميه الصغيرتين تهتز بحركات ضعيفة حتى هدأت روحه التي أتت توًا إلى عالمنا.. هذا العالم القبيح..

كانت القابلة تقف أمام السرير تتابع وهي تحملق بعينيها لكن دون أن تنطق ببنت شفة، كانت تعرف جيدا مصيرها إن تكلمت.. أنهت ليلى الأمر بسرعة ونظرت إلى القابلة في حزم وقوة وهي تقترب منها قائلة:



- تعرفين بالطبع ما سوف تقولينه؟.

فأجابت دون تردد:

- أعرف يا هانم.

ثم أخرجت نائلة مبلغًا من المال ودسته في يديها قائلة:

- لا أريد أن أسمع أنك ما زلت موجودة على وجه الأرض.. ارحلي لمكان أنا نفسي لا يمكنني أن أصل إليك فيه.. مفهوم.

أومأت برأسها في استسلام:

- مفهوم.

وخرجن جميعهنَّ من الغرفة تاركات صفيه فاقدة الوعي وطفلها الميت إلى جوارها.. في حين أوصت نائلة في مكر خادمة أخرى بمتابعتها والسهر على راحتها وراحة الطفل.. بعدما تستيقظ من نومها فهي ما زالت متعبة من ولادتها المتعثرة.. قالت نائلة هذا بكل برود كأن شيئًا لم يكن..

كان الذهول والصمت هو ردة الفعل الوحيدة التي انتابتني وأنا أشاهد بالمرآة هذه الجريمة التي لا أستطيع تسميتها أو أن أجد لها لفظًا مناسبًا أطلقه عليها.. ولم أستطع الكلام ولا حتى إفراغ ما بداخلي من غضب وصدمة عميقة، حالي كحالِ تلك القابلة التي اكتفت بالمشاهدة في ذهول مخفية فزعها.. وبقيت هكذا أمسك بالمرآة لفترة لا أعرف إن كانت طالت أم قصرت، وأنا أتطلع إليها حتى بعد أن اختفت الصورة من أمامي.. ظلت عيناي محمقلتين جامدتين وقد تحجرت بهما الدموع تأبيان البُكاء.. كان ما

رأته أكبر من أي غضب أو صراخ أو انهيار.. صدمة عنيفة ولطمة قوية تزيدني تيهًا وفقدانًا للاتزان.. تبعدني عن الخلاص من تلك المتاهة أكثر وتغرقني في مزيد من العذابات والآلام..

وهأنا وقد تعرفت على ليلى التي كُتبت من أجلها الرسالة الصفراء والتي لطالما ظننتُ ولا أعرف لَمَ ظننتُ يقينًا أن ليلى هذه رقيقة هادئة، طيبة، مغلوبة على أمرها!

"هل كانت الجدة فاطمة لتتخيل أن تُقدِم حفيدتها الغالية على قتل أخيها الوليد! وهل يستطيع أي عقل أن يتقبل أن تطاوع أي أم ابنتها فتتركها تلوث يديها بدم أخيها مهما يكن الأمر؟! كيف جَرُؤت نائلة تلك على هذا؟ كيف طاوعتها نفسها وأمومتها على مجاراة ابنتها فيما تنوي؟ أي أم تلك التي تفعل ذلك؟!"

ليلى كانت شريرة بطبيعتها بلا أي أسباب وكانت جريمتها تصرفًا متوقعًا نابعًا من أعماق نفسها الشيطانية، على عكس جدتها فريال التي قادتها ظروفها وما تعرضت له من صدمات إلى ما فعلته بأبيها..

بالتأكيد ليس هناك مبرر للقتل، لكن أن يكون الإنسان شريرًا بطبيعته فهذا ما يدعو للبحث والتفكر..

"لَمَ قد يولد الإنسان شريرًا.. لماذا؟!"

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أفتح بصعوبة بالغة جفوني المثقلة.. أحاول أن أرفع رأسي من على المنضدة.. وشعرت بتخدير في ذراعي التي ناءت بحمل

رأسي الثقيل عليها.. لا أعرف متى غالبني النوم أم أنني فقدت الوعي دون أي مقدمات.. ووجدت أنني ما زلت أقبض بيدي الأخرى على المرآة! ففككت قبضتي وأبعدت يدي عنها في استنكار وخذلان.. وقمت متثاقلة مستندة إلى الجدران أترنح في غير اتزان وهبطت السلم، وأنا أشعر أن درجاته تتحرك تحت قدمي، فأمسكت بالدرابزين بكلتا يدي حتى لا أسقط فوجدته هو الآخر يتلوى بين راحتيّ..

وما إن وصلت إلى الأريكة ألقيت نفسي عليها وأسندت رأسي للخلف كنت أحاول استعادة قواي الخائرة وتركيزي المشتت في كل اتجاه.. وبعد دقائق قررت أني أستطيع الآن النهوض مرة أخرى فقد كنت بحاجة ماسة إلى كوب من القهوة يساعدني على استعادة الانتباه.. فاعتدلت في جلستي وكدت أهم بالوقوف لولا أنه خيل إليّ بأن أحدهم يجلس إلى جواري.. تجمدت مكاني واستفاق عقلي بلا قهوة من شده الرعب..

***

18

وقلبي يرتجف بين أضلعي ادرت ببطء عيني الجاحظة الملتهبة باتجاه هذا الجالس إلى جواري.. لكني لم أجد أحدًا.. انتفضت واقفة أنظر إلى الأريكة في توتر فأنا واثقة بأن أحدهم كان جالسًا لتوه إلى جواري لقد لمحت جزءًا من رجليه.. لا بل كانتا قدمين لسيدة.. أنا متأكدة.. تراجعت للخلف وما زلت أنظر للأريكة وأفتش بعيني فيما حولي.. بكل مكان وأتخبط بالكراسي والأثاث في عشوائية دون اتزان.. وبصعوبة حاولت الثبات وفركت عيني، وأخذت نفسًا عميقًا وأخرجته على مهل محاولة أن أستعيد اتزاني.. فقد أكون مختلة.. مضطربة مما رأيته بالأمس في المرآة..

ولم أنتظر كثيرًا.. انطلقت إلى غرفتي وارتديت ملابسي بغير هندام وخرجت من المنزل مسرعة.. لم أستطع البقاء به على أي حال.. ولم أعرف إلى أين أريد الذهاب حتى أنني تركت سيارتي واتخذت طريقي سيرًا على قدمي بغير هدى.. كنت أسرع الخطى مبتعدة عن البيت.. هاربة من المرآة أم خائفة لا أعرف؟ ففي كلتا الحالتين الأمر سواء.. لا فرق هروب أم خوف، لا فرق..

مرت الساعات وأنا ما زلت أمشي، لم أشعر بالتعب والإرهاق الذي أعانيه إلا عندما حل المساء وعدت مضطرة إلى البيت فارتميت على سريري غارقة في نوم عميق..

كم تمنيت ألا أستيقظ مرة أخرى وأن أموت نائمة.. أو أن يكون كل هذا الذي أعيشه كابوسًا طويلًا وينتهي وأفيق منه، ولكن للأسف كنت في كل مرة أعود لنفس النقطة أستيقظ فزعة من كابوسي اليومي المعتاد بعلام وبنفس الطريق المظلم الذي أجري فيه خوفًا من هذا الذي يجري ورائي ولا أراه.. لأستفيق منه على الكابوس الحقيقي.. على قصص المرأة التي لا تكِف عن تعذيبي، تلك المرآة الملعونة.. التي وإلى الآن لم أستطع التخلص من سيطرتها عليّ.. بتُّ أشعر أنها كالإدمان بالنسبة لي.. فإذا لم أتطلع إليها تبدأ الأفكار بعقلي في التناحر كأنها تأكل بعضها البعض.. تكاد أن تصيبني بالجنون..

وشعوري بأن أحدًا معي بالمنزل كان لا يفارقني أبدًا.. وبرغم كل ما أعانيه معها ومنها ..أريد أن أكمل.. أريد أن أعرف..

كانت عينا ليلى الزرقاوان بجمالها المخيف لا تفارقني،وهذا الطفل الذي يتلوى وهو يصارع الموت حين كانت تكتم أنفاسه يعذبني.. وأمه المسكينة صفية.. تُرى ما الذي حدث لها؟

ولم أجد مفرًا من العودة إلى المرآة رغم كل شيء!

فوجدتها تبدأ من حيث انتهينا!

عاد حشمت إلى قصره متلهفًا، فأخبرته نائلة أن صفية أنجبت صبيًّا.. وقالت له في حزم: "إن عليه الآن أن يجد لهما مكانًا آخر يعيشان فيه خارج القصر، فلم يعد لهما مكان بينهم بعد اليوم.. وأنها تحملت طوال فترة حملها لأجله حتى لا تلقي بها في الشارع وهي حامل فتتحمل ذنبها! أما الآن وقد اطمأنت أنها ولدت طفلها فعليهما الرحيل.."

كانت تتكلم دون أن يبدو عليها أي تردد أو قلق.. كانت تتقن دورها فكدت أصدق أنها خشيت أن تتحمل ذنب صفيه فعلًا إن ألقت بها في الشارع وهي حامل.. إن الشيطان هو من يتكلم أمامي في صورة بشر..

بالطبع لم تكن لتتركها تغادر المنزل إلا وإن اطمأنت أنها تخلصت من الوراث الجديد!

ذهب الأب المسكين مسرعًا فرحًا إلى غرفة صفية فوجدها ما زالت نائمة، وإلى جوارها وليدها مغمض العينين ساكنًا هادئًا.. اقترب منها في حنان ومسح بيده على رأسها وقبّلها ففتحت عينها تستعيد وعيها وعندما رأته أمامها تبسمت مطمئنة.. فترقرقت الدموع بعينيه قائلًا:

– حمد لله على سلامتك.

– الله يسلمك.. ماذا ستسميه؟.

وهو يحمله برفق..

– أسميه "هاديًا"

وقبّل جبينه ثم رفع رأسه فزعًا يقول ..

- إنه بارد كالثلج!

- ماذا!

ونادى متوترًا قلقًا الخادمة المسؤولة عن رعايتها.

- إحسان.. إحسان.

فأتت إحسان مهرولة ..

- أفندم يا باشا ..

- الولد .. بادر كالثلج ..لا يتحرك.

اعتدلت صفيه بصعوبة وأخذت طفلها من بين يديه المرتعشتين.. وقربت وجهها منه لتستشعر أنفاسه.. لكن لا نفس لا علامة فيه على الحياة.. هزته وهي تختنق ببكائها المتحشرج بحنجرتها التي لا تزال شاهدة على صرخاتها وهي تدفع به إلى الحياة..

أخذت تكرر بشكل هستيري:

- كان عايش .. لقد سمعته يبكي .. أنا سمعته..

صُدم حشمت بوفاة ولده صدمة قوية وقد كان لديه يقين قوي في أن طفله ضحية لزوجته وابنته.. فاعتزل الحياة فيما بعد واكتفى بمراقبة من حوله في صمت..

أما صفية المسكينة فلقد شاهدتها بعد ذلك وهي تمشي في الطرقات حافية القدمين مبعثرة الشعر تهذي تكرر نفس الجملة..

"كان عايش .. لقد سمعته يبكي .. أنا سمعته"، فلا تقول غيرها تحدث بها المارة في الأسواق..

مسكينة .. فُجعت على ولدها فشت عقلها وأصابها الجنون..

والغريب أنني وفي أثناء ما كنت أشاهد صفية تهذي متخبطة في الطرقات أرى وللمرة الثالثة نفس هذا الشاب ذي اللحية والنظارة المستديرة رأيته يمر بجوار صفية وهي تهذي تحدث المارة فتلتقي عيناها بعينيه مشفقًا عليها ثم يغدو كل منهما في اتجاه!

" فهل هذا طبيعي أو منطقي أن أرى شخصًا واحدًا ويتكرر ظهوره في الأحداث برغم تغير الزمان والمكان!"

لكن لم يعد هناك مجال للتعجب أو الاستغراب أو حتى للمنطق فكل ما أمر به الآن هو لامنطقي وعجيب!

ومرة أخرى يتغير المشهد أمامي فيصرفني عن التفكير بمنطقية ظهور هذا الشاب اللازمنيّ في الأحداث.. لتعود أمامي من جديد ليلى وقد كبرت قليلًا.. كان صوتها عاليًا في عصبية وهي تتحدث إلى والدتها..

– أنا حرة في اختياري.. هذا هو الرجل الذي أحبه وسأتزوجه..

– وهل ستتزوجين خدامًا يعمل لدينا بالأجرة.. مجرد فلاح باليومية.. مستحيل..

نظرت ليلى في عيني نائلة في تحدٍّ وإصرار:

– لا قوة ستمنعني أن أتزوج سعدًا.. ولا حتى أنتِ..

وتركتها وانصرفت مغادرة الغرفة..

كان حشمت يجلس ساكنًا في زاوية بالحجرة نفسها بجوار النافذة شاردًا يسمع حديثهما.. فنظرت اليه نائله في غضب

– هل سمعت ابنتك.. هل ستتركها تتزوج من هذا الفلاح!

لم ينطق بأي كلمة ولم يظهر على وجه الجامد أي تعبير أو ردة فعل، كان صامتًا هادئًا.. تغير وجهه كثيرًا وارتسمت علامات وقسوة الزمن عليه..

وما لبثت أن قفزت بي الأحداث ثانية وبسرعة..

فرأيت ليلى وهي تتجول على قدميها وسط الأراضي الزراعية الشاسعة وقد تقدمت بها السن كثيرًا، أصبحت الآن في الأربعين من عمرها.. وسمعت أحد الفلاحين يهمس ساخرًا بصوت خفيض إلى صديقة الذي يجلس إلى جواره تحت إحدى الأشجار الظليلة..

– أرخت له الحبل على الغارب .. وأمنت له إلى أن نهبها.. وهي على عماها لا تعرف شيئًا..

– تستاهل هي التي عصت أباها وأمها وتزوجته.. وهل كان أحد يصدق أن هذا (الصايع) يصبح مالكًا لكل هذا النعيم.. ويتزوج بهذه القمر.. لا، وعلاوة على ذلك سوف يخطب "نفيسة" بنت الشيخ محمد إمام الجامع.. ودفع له مهرًا كبيرًا وأهداها فدانين من أرض الست ليلى.

- تقصد الأرض التي كانت تملكها الست ليلى.. إنه زمن اتشقلب حاله.

- حكم!.

تمر ليلى بأحد الرجال الواقفين وسط المزارعين المأجورين الذين يلتقطون الثمار من فوق الأشجار ثم يجمعونها بالصناديق استعدادًا لبيعها.. فتسأله في ثقة:

- من أنت؟ لم أرَك هنا من قبل!

ينظر اليها الرجل في اندهاش ويجيب على مضض:

- أنا راجِ.

- هل أنت الناظر الجديد للعزبة.

يضحك الرجل ساخرًا

- الغزبة.. ناظر! أنا صاحب هذه الأرض كلها.

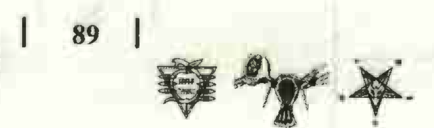
تنظر ليلى في صدمة

- ماذا هذا الذي تقوله يا مخرف هل جننت .. إنها أرضي أنا!.

يكاد يتهور عليها فيقول غاضبًا وقد نفد صبره

- من أنت يا ست؟.

- أنا ليلى هانم صاحبة العزبة، وكل ما حولها من أراضٍ.



- آآه ليلى هاااانم.

ثم تنحنح وهو يفتل شاربه الطويل ويضع يده في جيب جلبابه (فتحة الرقبة) وهو يقول:

- هو سعد بيه لم يخبرك بأنه باع لي العزبة.. وباقي الأرض قسمها وباعها أيضًا.

فُجعت ليلى من كلام الرجل.. ووقفت ذاهلة لم تستطع أن تنطق بكلمة، فلسانها متحجر داخل فمها.. رأيتها تحاول تحريك قدميها لكنها لا تقوى على ذلك وتشنج وجهها وفجأة سقطت بلا حراك..

احتشد الجميع من حولها.. حاولت إحدى الفلاحات إفاقتها لكن دون جدوى.. فصرحت السيدة صرخة مدوية..

- الست ليلى ماتت!.

لقد ماتت ليلى كمدًا.. بعدما فقدت ميراثها وكل ما تملك.. فقدت الثروة التي من أجلها قتلت أخاها بدم بارد.. خانها الرجل الذي من أجله تحدت والدها.. وعصت أباها..

توقفت المرآة عن السرد.. ولأول مرة أجد نفسي غير حزينة على موت أحدهم، بل كنت أريد لها موتًا أكثر إيلامًا.

" فهل كانت هذه النهاية هي العقاب والجزاء الكافي الذي تستحقه ليلى.. لا .. أظنها تستحق الموت آلاف المرات.. دون شفقه ولا رحمة.."

لكن.. يبدو لي أن هناك شيئًا ما غير متوقع قد حدث!

من الواضح إن المرآة لم تصل ليد ليلى قط، ولم تعلم عن أمرها شيئًا على الإطلاق.. فلو حدث هذا كنت شاهدته بالمرآة أو كانت علمت هي بأمر سعد هذا الذي استولى على ميراثها وباع كل أراضيها ولم يترك لها سوى هذا القصر لأنه بالطبع لم يكن ملكًا لها وحدها فهو ميراث مشترك بين جميع أفراد العائلة!

من الجائز لا بل من المؤكد أن الجدة فاطمة أخفت المرآة حتى لا تصل ليد نائلة المتعجرفة زوجة ابنها حشمت.. فهي ليست من دمها.. فأرادت أن تصل مباشرة ليد ليلى حفيدتها؛ ولذلك كتبت تلك الرسالة الموجهة لليلى مباشرة..

"فلماذا إذًا لم تصل المرآة إلى ليلى؟ وأين كانت كل هذه السنوات؟"

***

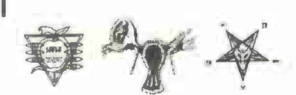
19

وقبل أن أبدأ من جديد وأكمل الأحداث لأعرف المزيد، لا بد لي أن أبحث عن اسم مهم، اسم لم اهتم له بداية الأمر..

إنه جودت باشا والد نائلة الذي ذكره هذا الرجل في حديثه عندما كان يتكلم إلى رفيقه اثناء حفل زفاف حشمت ونائلة.. لقد ذكر أن "جودت باشا" كان من كبار قادة الجيش العثماني..

فبعد أن فوجئت بشخصية نائلة وصدمتني بشكل أكبر شخصية ليلى نفسها فلا بد لي من إلقاء نظرة على حياة نائلة وأسرتها قبل زواجها من جدي حشمت ابن الجدة فاطمة..

كدت أن أخرج من باب المنزل في طريقي إلى المكتبة لكي ابحث عنه شيئًا ما أوقفني.. خاطر جاءني فجأة يحثني على التطلع والبحث عنه في المرآة! " ولِمَ لا؟ فكما كانت المرآة تحكي الماضي وتطلعنا على الحاضر حين نسألها فمن الجائز ان طلبت منها، وفكرت في شخص ما عاش بالماضي أن تطلعني أيضًا عليه.. راقت لي الفكرة أو هذا الخاطر.."



عدت إلى الحجرة وأخرجتها من محبسها.. وأمسكتها متحفزة وسألتها وأنا أنظر في ترقب إلى صفحتها المعتمة..

"من جودت باشا والد نائلة؟"

ولم تدعني المرآة أنتظر طويلًا..

لم أصدق عينيَّ حين بدأت صفحتها تموج أمامي ورأيت الأحداث تعود للوراء بسرعة.. كنت أدقق فيها فرأيت كل ما شاهدت من أحداث تمر سريعًا في تراجع.. تعود للخلف.. إلى أن بدأت الأحداث بالتباطؤ شيئًا فشيئًا..

بداية كانت الصورة غير واضحة..غير أنني كنت أسمع أصواتًا كثيرة صاخبة متداخلة، صراخ هَلِع وأصوات خيول تصهل بقوة وتعدو بسرعة وتتعالى معها صرخات تشق الصدور لنساء وأطفال!

ثم ما لبثت أن انجلت المشاهد واضحة أمامي.. فرأيت مجموعة ليست بقليلة من الجنود، بعضهم يمتطون الخيول والبعض الآخر مترجلون، يرتدون ملابس تشبه تلك الملابس التي كنت أراها في صور الجنود الأتراك في كتب التاريخ!

رأيتهم يهجمون بوحشية على قرية كاملة تقع في منطقة جبلية لها طبيعة ساحرة، وكان الأهالي يفرون من نصال سيوفهم فزعين في كل اتجاه، الأمهات مذعورات، هلعات، يحملن ما استطعن من أطفالهنَّ، والباقيات يهرولن وراءهن، فيتعثر بعضهنَّ، ويقعن على الأرض لتتصيدهن على الفور



الخناجر فتنحرهنّ أو تُدق الحراب صدورهنّ.. وكذلك الرجال.. لا أحد يستطيع الفرار.. كان الجنود ينقضون بكل شراسة على هؤلاء العزل فيقتلون ويذبحون بلا رحمة رجالًا ونساء وأطفالًا وحتى العجائز لا استثناء.. فتخضبت الأرض بالأحمر القاني وجرت الدماء كجداول الأنهار مندفعة من فوق التلال التي غطت سفوحها الأجساد الممزقة..

كانت أذرع الأمهات لا تزال تحتضن أطفالهنّ متعانقة حتى لحظات الموت الأخيرة..

ولم يكتفوا بما فعلوا فأضرم الجنود النيران في تلك التلال البشرية حتى يطمئنوا لموت الجميع.. فتعالى الدخان يخنق أنفاس السماء، فتلونت السحب البيضاء بلون الموت الرمادي!

كنت مشدوهة غارقة في البكاء فما هذا؟ وأين كانت هذه الحرب؟ ومن هؤلاء الجنود؟! ولماذا ذبحوا الأهالي العزل ومزقوا أجسادهم وأحرقوهم!

"ماذا فعلوا لكي يلقوا هذا المصير البشع! "

ووسط خضم كل تلك الأحدث الرهيبة، رأيته يختبئ!

نعم رأيته يحاول الاختباء خلف الأشجار! إنه هو.. إنه هو ثانية هذا الرجل ذو اللحية، عرفته من معطفه وهيئته المميزة.. لكنه انطلق مسرعًا يعدو فارًا من الجنود حتى اختفى تمامًا.. " من هذا؟! "

أريد أن أعرف من هذا الغريب؟!

وبعد أن انتهوا من الجميع واطمأنوا أن لا أحد على قيد الحياة.. سمعت أحد القادة يعطي أوامره في حزم وقوة لواحد من جنده أن ينطلق من فوره لمعسكر القائد "جودت باشا".. ليبلغه أن أوامره نُفذت وتم القضاء على جميع أهالي "سعرت" كما أمر!

ثم ظهرت أمامي فجأة ورقة صغيرة تشبه البرقية موقعة باسم جودت باشا.. ويد لجندي تمسك بها ويقرؤها، مكتوب فيها ثلاث كلمات فقط..

" احرق .. دمر.. اقتل.. "

ثم اختفى بعد ذلك كل شيء أمامي بالمرآة!

لايزال بكاء الأطفال وعيونهم الفزعة ترافقني وصرخات الأمهات المكلومة وتوسلاتهم للجنود أن يتركوا أطفالهم تمزق قلبي وتنحر روحي.. بكيت.. بكيت كثيرًا.. شعرت بالقهر والذل وقلة الحيلة.. إنها مذبحة.. لا بل إنها إبادة جماعية وعن عمد وبأوامر مسبقة من حضرة القائد جودت باشا!

لقد عرفتني المرآة على من هو جودت باشا والد نائلة هانم واستنتجت لَم كانت هي وليلى ابنتها يحملان كل تلك القوة الظالمة والعجرفة والقسوة.. ولَم كانت قلوبهم لا تعرف الرحمة وكان القتل عندهم سهلًا هينًا..لقد اندست في دمائهم بذور العنف والجبروت والظلم وارثين إياها منه.. جودت باشا مجرم الحرب هذا!

ولم يفتني أن أتأكد مما رأيت، فبحثت عن معلومات تخص تلك المدينة التي سمعت الجندي يذكر اسمها مدينة "سعرت" عرفت أنها كانت موجودة بالفعل، وأنها قرية صغيرة من القرى التي كان يقطنها الأرمن فيما مضى في أثناء حكم الدولة العثمانية، وازدياد نفوذها وبطشها شرقًا وغربًا!

وعرفت ويا ليتني ما عرفت.. أنها لم تكن القرية الوحيدة التي أُبيدت بالكامل في ذاك الوقت، بل كانت هناك العديد من القرى الأخرى للأرمن ومن قبلهم الآشوريين واجهت نفس المصير بل بأكثر الطرق وحشية وهمجية.. لقد مات الكثير.. أعداد مهولة من الأبرياء لاقت حتفها بلا ذنب، أُهدرت دماؤها بأوامر من السلطان العثماني! ونفذها قادة جيشه بأيدي جنودهم وأحدهم كان جودة باشا!

إذا إنه فرع من فروع هذه العائلة الملعونة لم تكن لتنقصه لعنة دماء هؤلاء الأبرياء.. ويا له من عار! فهل طاردت تلك اللعنات كل من كان من نسلها؟!

" عائلة كبيرة حقًا ولها تاريخ إجرامي لا تحسد عليه! "

لم أستطع النوم على الإطلاق تلك الليلة.. كنت أتقلب في السرير كمن تتقلب على الجمر.. لا أهدأ، تتصارع داخلي الأفكار ولا تفارقني وجوههم جميعًا.. أعيد على نفسي حكاياتهم وأربط تفاصيل ومجريات الأحداث ببعضها البعض.. فأشعر بدماغي يغلي وأن دمي صار كحمم البركان تسري في عروقي تصهرني ببطء..



مر بخاطري كل شخص رأيته وعرفته بالمرآة.. وفي أثناء ما كنت أفكر في الجدة فريال، وكيف أن ما عَرفَتهُ من حقيقةٍ مفجعة وكذلك حالتها النفسية التي عايشتها فيما بعد والتي أوصلتها إلى أن تفعل ما فعلته بأبيها، تذكرت بأنه قد كان لها أخ اسمه "حسين! " هذا الذي قالوا إنه مسافر على الدوام.. لقد رأيته وهو صغير.. كانت تحمله أمه فائقة، بين يديها وهي تجلس بالحديقة مع (غالي)..

" أين هو؟ وأين ذهب بعد موت أمه وأخته ومن بعدهما أبيه!

لماذا لم يظهر في المرآة ثانية! "

انتفضت من سريري وفتحت النافذة لأستنشق بعض الهواء الذي اختفى بالداخل.. كان لا يزال الليل مطبقًا بظلامه الحالك على كل الأشياء من حولي.. والطقس بالخارج بارد جدًا، ولكني لم أشعر قط بتلك البرودة فتلك النار بداخلي أفقدتني الإحساس بما حولي..

أفكر.. فقط كنت أفكر في كل شيء، وخاصة في "حسين" هذا، الأخ الأصغر والوحيد لفريال أين ذهب.. ولِمَ تجاهلته المرآة؟ لماذا ترك كل شيء ورحل!

مُسيرةٌ غير مُخيرة اتجهت للمرآة وانطلقت معها أبحث عنه وكما سألتها عن جودت سألتها عن حُسين!

***

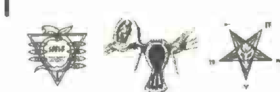


20

وبعد لحظات من الانتظار رأيت سحابة دخان أسود ينبعث متصاعدًا من فوهة مدخنة أحد المنازل، فتقاطعه حبات الثلوج البيضاء تتساقط بكثافة لتغطي أسطح المنازل والشوارع والساحات.. كان منزلًا أنيقًا يشبه تلك المنازل الأوربية الطراز.. ورأيت شخصًا يقترب في عجالة من باب المنزل.. رجل طويل القامة يرتدي معطفًا رماديًّا من الصوف الثقيل، يحاول أن ينفض عن كتفه حبات الثلوج المتكومة عليه.. كان شاربه ولحيته الكثيفة كذلك مغطاة بالثلج.. وما إن أزاح عن لحيته الثلج العالق عليها عرفته في الحال..

لم أستطع أن أميزه بادئ الأمر كان رأسه ولحيته مغطاتين بالثلوج فطمست ملامحه..

" إنه هو.. إنه نفسه الرجل ذو اللحية والمعطف! إنه هو نفسه ذاك الذي كان يظهر في المرآة برغم اختلاف الأزمنة والأمكنة! "



وضع حقيبته بجوار المدخل واقترب مسرعًا من المدفأة يقتبس منها دفئًا.. يبدو لي أنه هذه المرة ليس مجرد عابر، وأن ظهوره ليس حدثًا عارضًا أو مصادفة..

" هذا هو بيته إذًا.. هل هو حسين! هل هذا ممكن؟

ولم لا؟ فأنا طلبت من المرآة أن تُريني حسينًا وعندما تجلى لي المشهد بها كان هو أول من رأيت..كيف كان يظهر لي في المرآة في أماكن وأزمان مختلفة؟! "

كان المنزل صغيرًا، أنيقًا ومرتبًا للغاية.. كل شيء في مكانه، عدا هذه الزاوية.. زاوية مكتبه، كان هذا هو الجزء الذي يتمتع بالعشوائية و(الهرجلة) المفرطة، فكل الأشياء والأوراق مبعثرة عليه، وفي الخلفية مكتبة كبيرة احتلت جدارين متلاصقين اصطفت متلاصقة عليها الكتب والمجلدات الكبيرة والموسوعات الضخمة..

بعد أن شعر بالدفء اتجه إلى مكتبه وجلس إليه وأخذ يفتش في الأوراق التي أمامه واستقر إلى إحداها. وبدأ يكتب بعض الكلمات باللغة الإنجليزية وأخذ يدون كتاباته في اندماج وتركيز بالغ كان يكتبها كالملاحظات.. في نقاط يتخللها بعض المعادلات الرياضية.. لم أفهم منها شيئًا.. ثم أخذ يفتش ثانية بين الأوراق المبعثرة من حوله وأخرج من بينها ورقة كبيرة بها معادلات أخرى، ورسمًا كبيرًا للكرة الأرضية موضحًا عليه تخطيط لأماكن خطوط الطول والعرض، ودوائر أخرى أصغر رسمت بالقرب من الأرض على ما يبدو أنها للقمر والشمس وبقية الكواكب..

" ما الذي يفعله هذا الرجل؟ هل كان حسين عالمًا في الفلك؟ "

كان لا يزال منهمكًا في حساباته ومعادلاته وبين الحين والآخر أراه ينظر في ساعة يده التي بدت كبيرة على غير المألوف فيعيد ضبطها ثم يدون أرقامًا ومعادلات جديدة في الورقة وكأن هناك صلة ما بين معادلاته وساعة يده!

ثم هب واقفًا بمنتصف الحجرة للمرة العاشرة يضبط ساعته ويمم وجهه باتجاه النافذة.. فحدث شيء عجيب!

كأن طاقة ساطعة من النور ظهرت فجأة تومض بقوة بضوء يتغير ما بين الأبيض والأزرق.. فابتسم حسين بزهو ثم مشى إلى داخل الفجوة المضيئة حتى اختفى تمامًا!

وكذلك اختفى المشهد من المرآة!

" ما هذا الذي حدث وأين ذهب؟ وما تلك الفجوة المضيئة التي اختفى فيها؟! "

كنت قد قرأت عن حالات عديدة لأشخاص اختفوا في الهواء ولم يُعثر عليهم مرة أخرى.. وقد فسر البعض ذلك بأنهم ومن الممكن أن تم اختطافهم من قبل كائنات فضائية أو أنهم على الأرجح مسافرون عبر الزمن!

لم أر أي كائنات غريبة ظهرت قبل اختفائه.. كان من الواضح أنه هو من يقوم بأبحاث وحسابات دقيقة.. وتلك الساعة في يده من المؤكد أن لها دورًا ما.. " فهل ما رأيته كان سفرًا عبر الزمن؟ "

وهل يفسر ذلك ظهوره المتكرر لي بالمرآة في أزمنه وأماكن مختلفة؟

هذا أقرب احتمال.. فمن المستحيل أن يعيش إنسان لكل هذه الفترة من السنوات التي قد تتخطى المائتي عام وأن يحتفظ أيضًا بشبابه دون أن يتقدم بالسن!

حاولت أكثر من مرة استدعاء صورته بالمرآة أو معرفة أي تفاصيل أخرى عنه، فلم يفلح الأمر ولم يظهر لي ثانية.. كانت المرآة في كل مرة ابحث عنه لا تعكس شيئًا سوى صورتي!

"ترى ما الذي أنا مقدمة على معرفته؟!"

هكذا كنت أحدث نفسي عندما أمسكت بالمرآة ثانية.. بعد ان يئست تمامًا من أن أتمكن من رؤية حسين مرة أخرى أو أن أعرف عنه شيئًا.. فقررت أن أترك المرآة لتحكي لي ما تريد، تمامًا كما كانت تفعل من قبل..حينها شعرت بدقات قلبي تتسارع مع تسارع الصور والأحداث أمامي.. كنت أتنفس بصعوبة وكأني في سباق للجري لمئات الأميال.. الأحداث تمر أمامي كمشاهد لفيلم صامت بالتصوير السريع.. فذكرتني بالأفلام الصامتة للعبقري "تشارلي شابلن.."

وما هي سوى لحظات حتى أخذت الأحداث في التباطؤ.. قلبي ما زال يخفق بقوة.. فذلك التباطؤ في عرض الأحداث يعني أن المرآة ستبدأ في سرد حكاية جديدة!

إذًا ما الذي سوف تحكيه المرآة الآن؟!

***

21

رأيت أمامي في المرآة سيدة.. ترتدي فستانًا مودرن أنيق، تقف في بهو القصر.. نفس القصر الذي كان للأميرة فائقة وهو نفسه الذي كان للجدة فاطمة ومن بعدها حشمت بك .. وهو نفسه الذي أعيش به الآن! لم يتغير كثيرًا.. غير أن بعض قطع الأثاث استبدلت وحلت محلها أخرى أكثر حداثة..كانت السيدة على قدر وافر من الجمال تمتلك عينين بنيتين وبشرة بيضاء صافية.. كان شعرها معقودًا في عشوائية، فانفلتت منه بعض الخصلات منسدلة على وجهها فزادها جمالًا.. كان من الواضح أنها عائدة لتوها من سفر طويل خارج البلاد.. كانت تعطي أوامرها للخدم بتنظيف القبو.. وإخراج كل ما فيه والاحتفاظ بالأشياء المهمة فقط! كانت تريد استغلال القبو كمرسم لها حيث إنني عرفت فيما بعد أنها قد درست الفنون وتعلمت الرسم بفرنسا..

تناديها إحدى الخادمات.. "سلوى هانم.. وجدنا صندوقًا كبيرًا مغلقًا بالقفل.. ولم نجد له مفتاحًا".

سلوى: "اكسروا القفل.. لنرى ماذا فيه".

أليست هذه هي سلوى التي كان اسمها مكتوبًا في شجرة العائلة! لكن هناك جدتين بالوثيقة اسمهما "سلوى" فهل هي سلوى حفيدة عائشة أخت فاطمة صاحبة الورقة الصفراء.. أم أنها ابنة مراد بك التي سميت على اسم جدها؟

يقوم الخادم بكسر القفل ويفتح الصندوق.. تقلّب سلوى في محتويات الصندوق، لا تجد به إلا ملابس نسائية قديمة الطراز أنيقة جدًّا وبحالة جيدة، ومن ضمن ما وجدته بالصندوق، لوحتان كبيرتان ملفوفتان مرسومتان باليد لسيدتين ، كُتِب أسفل كل منهما اسم صاحبة اللوحة الأولى لسيدة انيقة تدعى «الأميرة فائقة شاهر» والأخرى لشابة بملامح غاية في الرقة وتشبه الى حد كبير السيدة في الصورة الأولى وكتب أسفلها أيضًا بخط صغير اسم صاحبتها «الأميرة فريال غالي» كانت تلك اللوحات هي نفسها اللوحات التي على الحائط في غرفة جدتي غير أن بعض ملامحهم قد طمست واصبحت باهتة..

إن هذا الصندوق هو نفسه الصندوق الذي احتوى على كل ما يخص الأميرة فريال بعد موتها! يبدو أن الجدة فاطمة هي الوحيدة التي فتحته وحررت منه المرآة ومن المؤكد أنها عادت وأخفتها فيه من جديد حتى لا يعثر عليها أحد قبل ليلى.. أما زال موجودًا برغم مرور كل تلك السنوات؟ ألم يفكر أحد في الاطلاع على تلك الأشياء المخزنة في هذا القبو؟! أم أن البيت ظل خاليًا من أي سكان كل تلك الفترة؟!

سمعتها تقول وهي تنظر بتأثر للصورتين: "قالت لي أمي: إنه كان لها جدة اسمها فريال.. قالوا إنها ماتت حزنًا على وفاة والدتها بعد ما تدهورت حالتها النفسية ومات أبوها أيضًا من قبلها.. ماتت وهي لاتزال شابة، كانت جميلة ورقيقة فعلًا"..

وها هي جدة أخرى تعرّفني إليها المرآة.. إنها سلوى الكبرى التي تتحدث الآن وهي حفيدة إحدى التوأم اللتين أنجبتهما فريال واللتين رأيتهما تلعبان في الحديقة عندما كانت تطلب الإذن من والدها لتدخل غرفة والدتها الأميرة فائقة.. "إنها الجدة سلوى الكبرى".

كانت الخادمة تنظر هي الأخرى في فضول إلى صورة الأميرة فريال ثم بادرتها قائلة في حماسة "إنها تشبهك كثيرًا يا هانم".

تنظر لها سلوى وهي متفاجئة من تلك الملاحظة الذكية.. ثم تعيد النظر مرة أخرى للصورة، تتأملها وكأنها تريد أن تتبين صحة ما قالته الخادمة..

ثم تعود لتقلب في محتويات الصندوق لتظهر أمامها المرآة، وكأنها جثة طفت فجأة فوق مياه راكدة! كانت موضوعة وسط محتويات الصندوق وملفوفة بقطعة قماش أحمر من القطيفة كالتي وجدتها بها بالصندوق وقد تكون هي نفسها..

قررت سلوى أن تحتفظ باللوحتين المرسومتين للأميرتين وكذلك احتفظت بالمرآة!



وبعد يوم طويل من الإرهاق قضته جدتي سلوى الجميلة والأنيقة في الإشراف على تنظيف القصر.. جلست متعبة إلى الطاولة الصغيرة تحت النافذة بغرفتها تتأمل اللوحتين وقد أسندتهما إلى الحائط.. ثم تلتفت بنظرها إلى المرآة الموضوعة أمامها على الطاولة والتي ما زالت متدثرة بغطائها الأحمر.. تزيح عنها الغطاء لتجد أن بين طياتها رسالة مطوية..

***

22

بالتأكيد هي رسالة الجدة فاطمة للملعونة ليلى..

وبعد أن قرأت سلوى الرسالة بدا عليها الكثير الدهشة والحيرة، فأمسكت بالمرآة في استخفاف تقلبها وتتفحصها ثم رفعتها أمام وجهها تحاول تنسيق خصلات شعرها الناعمة التي تدلت على جبينها..

ومن جديد أرى نفس النظرة التي ألفت غرابتها.. قد ارتسمت على وجه سلوى هي الأخرى.. وبعد فترة ليست بقليلة تلقي سلوى بالمرآة مقلوبة على المنضدة وتخفي وجهها بيديها غارقة في البكاء..

"لكِ كل الحق أن تبكي يا جدتيّ .."

ووجدت نفسي وأنا أتابعها في مرآتيّ، تغافلني الدموع فتجري على خديّ، وتعيد عليّ تلك المشاهد المؤسفة، وأنا أشعر بمرارة ما تشعر به جدتيّ سلوى في نفس اللحظة، بكينا معًا كأنني أجلس إلى جوارها أشاركها تلك الحقيقة المريرة والماضي المخزي..



تمنيت بشدة لو أني استطعت أن أربت على كتفها أو أن أحتضنها فأواسيها وأخفف عنها..

وتغير المشهد أمامي..

فرأيت سلوى وهي تتمشى حزينة في حديقة القصر، ولا تزال نظرة الأسى تطل من هاتين العينين اللامعتين ببريق دموعها.. تائهة بين ماضيها وحاضرها.

لم تختلِ سلوى إلى رسوماتها منذ أن عادت من باريس، كانت تعايش فيهم حزنًا عميقًا لما رأته في المرآة.. وزاد على هذا.. شعورها بالوحدة الذي تسرب إليها بسبب غياب زوجها سليم عن المترل لفترات طويلة بحجة السفر المستمر لمتابعة أعماله، أو للاطلاع على آخر مستجدات الفنون والتحف النادرة فهو خبير بالتحف ويقيم دومًا العديد من المزادات..خاصة وكذلك ابنها مراد الذي ذهب إلى المدرسة الداخلية مع بداية العام الدراسي الجديد، فقد أصبح الآن على مشارف دخول الجامعة.. وقد عرفت أنه هو نفسه مراد والد سلوى الصغرى «سلوى سليم مراد» والتي أسماها على اسم والدته فيما بعد..

اشتاقت سلوى إلى ابنها مراد كثيرًا؛ فهو بالنسبة لها القوة التي تواصل بها حياتها والروح التي تدعم روحها.. وكانت هي كذلك بالنسبة له..

مرة أخرى تملأ الدموع عينيها حينما تذكرت وجه ابنها مراد، وأحسَّت في تلك اللحظة أنها في احتياج لأن تضمه إلى صدرها وأن تقر عينيها بالنظر إلى عينيه.. علّ هذا يخفف بعض الشيء من الألم والحزن الذي استقر داخلها ..وهنا تذكرت المرآة.. تذكرت أن المرآة كما تطلعها الماضي فهي تريها الحاضر.. هكذا سمعت الحكيم علامًا يقول للأميرة فائقة.. وكأنها قالت لنفسها: لَم لا تجربها لترى فيها صورة ابنها مراد لتثلج قلبها برؤيته؟

اتجهت سلوى إلى دولاب ملابسها وأخرجت المرآة من صندوق صغير.. كان هو نفس ذلك الصندوق الذي وجدته أنا وكان به المرآة بالقبو..

تتطلع سلوى إلى المرآة وهي تتمنى في لهفة رؤية مراد..

ورويدًا رويدًا تظهر أمامها صورته وهو يجلس على السرير بحجرته الأنيقة في المدرسة الداخلية ممسكًا بكتاب يقرؤه.. كان وجهه جميلًا هادئًا.. تبتسم سلوى بعينيها الدامعتين وتقرب شفتيها من المرآة لتطبع قُبلة على وجه مراد.. شعرت سلوى براحة وسكينة بعدما رأته واطمأنت عليه..

شعرت أنا أيضًا بتلك الراحة والسكينة وقد خفق قلبي بحُب مراد ذلك الولد الصغير المهذب وكأنني أمه ونسيت تمامًا أنه جد من أجدادي وتفرق بيني وبينه عقود كثيرة!

يا له من شعور جميل.. الأمومة!



وتبدلت تلك النظرة الحزينة في عيني سلوى إلى نظرة هادئة مطمئنة.. وبعد لحظات رأيتها تمسك مرة أخرى بالمرآة، ولكن.. هذه المرة كانت لكي ترى زوجها سليمًا المشغول دائمًا بأعماله المهمة عنها! وكأنها كانت تهرب من الماضي لحاضرها..

هذه المرة لم أرَ على وجهها نظرة كتلك التي كانت على ملامحها عندما شاهدت ابنها مرادًا.. كانت النظرة هذه المرة مختلفة!

***

23

كنت أرى سليمًا في المرآة وهو يجلس على أريكة فاخرة في بيت لا أظنها كانت تعرفه، وإلى جواره يجلس رجلٌ جسده ممتلئ في ترهل على ما يبدو أنه صديق له.. وقد يكون هذا الرجل هو صاحب هذا البيت..

وأمامهما أرى منضدة صغيرة وُضِع عليها الكثير من الطعام والفاكهة وزجاجات الخمر! وصوت ضحكاهما العالية يملأ المكان، وكذلك كانت حركاهما تبدو غير متزنة من حالة السُكر التي كانا فيها.. لكنها إلى الآن لم ترَ أي سيدة أو فتاة تثير الشكوك تجاه زوجها.. فعلى ما يبدو أنها جلسة صداقة أو سهرة عمل، فعمله يحتم عليه مقابلة الكثير من الناس ومجاملتهم.. ولكن سرعان ما تبددت تلك الطمأنينة التي ظنتها لتحل مكانها نظرات مرتبكة يملؤها الكثير من علامات الاستفهام!

كان سليم يقترب من ذلك الرجل الجالس إلى جواره بحركات مريبة غير مفهومة.. تتسع عينا سلوى من هول ما ترى.. سليم! ما هذا؟! سليم! هكذا قالت تلك الكلمات وهي تحملق في فزع بالمرآة.



كان سليم الشاب ممتلئًا بالرجولة والحيوية! هو حبها الأول والوحيد ورفيق رحلة دراستها في فرنسا.. كانت أجمل الفتيات يتمنين نظرة من عينيه! ولكنه طلب منها الزواج مبتعدًا عن كل الفتيات الأخريات وفضلها عليهن..

ما زالت سلوى تنظر إلى المرآة فارغة فاها بنظرة ذاهلة وكذلك كنت أنا على نفس حالتها.. ما هذا الوحل الذي ألقى نفسه فيه؟ إن ما رأته لم يكن ليخطر على بالها مطلقًا مهما حدث! ولكن ما شاهدته بعد ذلك لا يقل قذارة. . وبعد أن انتهى من لذته المحرمة وفعلته الشائنة..

رأت سليم وهو يضع في غفلة من رفيقة بعضًا من مسحوقٍ أبيض بكأسه .. كان في زجاجة صغيرة قد دسها مسبقًا في ثنايا مقعد الأريكة وسقاه الكأس بيده.

وبعد لحظات بدأت تظهر على وجهه علامات الألم الشديد الذي تحول شيئًا فشيئًا إلى اللون الأزرق، وما هي إلا دقائق حتى سقط الرجل على الأرض دون حراك، وفمه مفتوح يسيل منه زغبٌ أصفر..

كان سليم في تلك الأثناء ينظر ببرود إلى ضحيته.. ثم قام متثاقلًا بعد أن اطمأن تمامًا أن أنفاس الرجل قد هدأت للأبد فأمسك بقدميه وأخذ يجره في عناء باتجاه الباب الخلفي للمنزل والذي كان يؤدي مباشرة إلى الحديقة.. إلى أن وصل بالقرب من مكان حفر عميق على ما يبدو أنه أعدّ سلفًا.. وأخذ يدفع به محاولًا زحزحته إلى حافة تلك الحفرة حتى أسقطه بها،

وأخذ يردم عليه إلى أن اختفت جثته تمامًا ثم قام بغرس بعض الزهور فوق مكان الردم ليبدو الأمر طبيعيًا وكأن شيئًا لم يكن!

كانت هي في حالة من الذهول همهم بكلمات تخرج متقطعة وهي ترتعد .. "هل هذا هو الفخر الذي تبنيه لي ولابنك؟! لا أصدق ..لا أصدق أكيد هناك خطأ ما .. لا يمكن ..سليم لا يمكن!"

استمرت سلوى في الأيام التي تلت اكتشافها تلك المأساة.. وهي تتابع سليم من خلال المرآة لتجد أنه يقوم باستدراج الرجال إلى ذلك البيت بحجة أنه يحتاج لشخص يساعده في بيع ما يقتنيه من تحف ولوحات ثمينة نادرة أو شراء الآثار التي كان يعثر البعض منهم عليها مدفونة تحت منازلهم! ثم بعد ذلك يتحول الأمر إلى ما رأته سلوى، وقد يرافقه عدة أيام إلى أن يمل منه فيضع له السم في كأسه ويواري سوءته في حفرته المعهودة.

أصرت سلوى على أن تتأكد بنفسها من وجود ذلك البيت الذي رأته في المرآة، وفي مرة من المرات التي كان يخرج فيها سليم بحجة السفر لمتابعة أعماله، انتظرت إلى أن خرج ثم تبعته دون أن ينتبه لها حتى رأته يدخل بيتًا أنيقًا له حديقة صغيرة، هي نفسها الحديقة التي رأته يدفن ضحاياه فيها.. كان البيت موجودًا بمنطقة زراعية يقطنها بعض المزارعين الكادحين الذين يعانون الفقر وسوء المعيشة..

وهنا تيقنت من أن ما رأته ليس خدعة أو تخيلات، وأن المرآة كانت صادقة فيما روته.. وعادت أدراجها محملة بعبء ثقيل وقهر مميت..



بدأت ظاهرة اختفاء الكثير من الرجال تثير الشكوك لدى الشرطة، حتى إن الصحف اليومية بدأت في فرد صفحات كبيره للحديث عن هذه الظاهرة.. ظاهرة جديدة لم يعهدها المجتمع من قبل.. ولم يعرف أحد سبب اختفاء هؤلاء الرجال حتى ذووهم لم يعرفوا عنهم شيئًا..

البعض يقول إنهم هربوا من الفقر وظروفهم الاجتماعية الصعبة إلى بلد آخر، بحثًا عن المال وفرص العمل.. وقال بعض أهالي القرية الصغيرة التي كان منها معظم حالات الاختفاء أن سبب اختفائهم هو أن الجن قد اختطفهم في عالمه السفلي..

ولكن الجن كان بريئًا من تلك الجريمة براءة الذئب من دم بن يعقوب.. وكان الكل يدلي بدلوه دون دليل مؤكد..

وحدها سلوى كانت هي من تملك ذلك الدليل الدامغ والسبب المحير وراء ما يحدث، ولكنها كانت عاجزة عن أن تفعل أي شيء ..لا تستطيع كشف الحقيقة.. وحتى إذا كانت تستطيع أو تريد ذلك.. هل كانت تفعل ذلك لتشوّه سمعة ابنها الوحيد مراد، الذي ما زال يخطو أولى خطواته نحو مستقبله.. هل كانت لتكسره وتصيبه بالخزي والعار طوال حياته..

ولكن ماذا ستفعل أيضًا في خيانته لها؟ والنار التي تحترق بها كل يوم تزداد اشتعالًا لتزيد من وطأة مصيبتها! وكان صبرها عليه وهي تراه أمامها ولا تستطيع مواجهته بما علمت فوق احتمالها..

عاشت رعبًا حقيقيًا في كل لحظة تتصور فيها ما قد تواجهه إذا ما اكتشفت الشرطة أن زوجها المحترم هو الجاني الحقيقي وراء كل حوادث الاختفاء تلك.. ساعتها سيتحطم مراد ويضيع في دوامة المذلة والعار وسيلفظه المجتمع بكل قسوة دون رحمة.. وكذلك هي كيف ستعيش بقية حياتها تعاني ذل الفضيحة.. باتت سلوى لا تذوقُ النوم ولا تَقرب الطعام حتى ذبل وجهها الجميل وذهب بهاؤها المعهود.. وهي ما زالت تُفكر في الطريقة التي تُوقف بها نزيف القتل وشهوة الفاحشة التي استهواها سليم.. لم تعد تُطيق النظر إليه ولا حتى تتحمل سماع صوته.. كانت نبرات صوته بالنسبة لها كمطارق من حديد تهوي على رأسها ألف مرة ومرة ..وكانت لمسته لها تثير الغثيان وكل مشاعر الاشمئزاز والاحتقار داخلها.. فكانت تحاول جاهدة إخفاء نظرة الاحتقار تلك من عينيها في حين كانت تنهار كليًا من داخلها، كان كيانها كله يهتز غضبًا، غير قادرة على تحمل المزيد..

لأول مرة أرى سليمًا وعلى غير عادته يجلس إلى مائدة الطعام وعلى يمينه يجلس ابنه مراد الذي حضر لقضاء إجازة منتصف العام مع والديه.. وأمامه تجلس سلوى في هدوءٍ وسكينة ظاهرية..

أراها تقوم وتتجه إلى المنضدة الصغيرة في الزاوية وقد وضُع عليها مجموعة من الكؤوس ودورق كبير به عصير البرتقال، تفرغ العصير في ثلاث كؤوس.. ثم تخرج من جيب فستانها زجاجة صغيرة بها مسحوق أبيض! أفرغتها في كأس منها.

مدت يدها بكأس العصير لسليم وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة شاحبة.. وتقدم لمراد كأسه هو الآخر.. ثم عادت إلى مكانها على المائدة، ترمق سليم بنظرات خاطفة وهو يشرب العصير حتى آخر رشفة وهي توهمه أنها مشغولة بالأكل غير ملتفتة إليه.. انتهوا جميعًا من طعامهم وشرابهم.. وقام سليم وودع ابنه مراد الذي سيتجه من فوره إلى السيارة التي ستقله إلى مدرسته، فهذا هو اليوم الأخير في إجازته ولن يعود مرة أخرى إلا بعد ثلاثة شهور في إجازة الصيف..

صحبته أمه إلى الخارج وهي تودعه وتضمه إليها بشدة وكأنها كانت تستمد منه القدرة على مواصلة الحياة .. كانت عيناها تحملان نظرة جامدة تخفي وراءها الكثير من الألم والحسرة..

اتجه سليم إلى غرفة نومه بعدما ودَّع مرادًا.. وجلست هي في غرفتها ممسكة بمرآتها تنظر إليها، وما زالت تلك النظرة الجامدة منطبعة في عينيها وهي تتابع بصبر زوجها سليمًا!

كان يحاول جاهدًا أن يتعلق بسريره حتى لا يسقط، وبيده الأخرى يمسك بقلبه في حالة من التشنج من شدة الألم.. وما هي إلا لحظات حتى سقط على الأرض وقد توقفت أنفاسه وتجمدت نبضات قلبه.. وما إن اطمأنت هي أن أنفاسه توقفت وانقطعت صلته بالحياة تمامًا.. حتى قامت في هدوء غريب وأعادت المرآة إلي الصندوق بدولابها بكل روية وتأنٍّ.. واتجهت إلى سريرها بنفس الخطوات الهادئة.. لتخلد إلى النوم.. وهي تشعر أنها أخيرًا أوقفت كذلك نزيف القتل والشهوة الذي حصد معه الكثير من الأرواح وانتقمت لهم جميعًا..



لم يُزعج نومها إلا صوت طرقات خادمتها المضطربة على باب غرفتها.. ثم تدخل عليها وقد ارتسم في عينيها الفزع والهلع، كانت تكاد تصرخ وهي تتكلم..« سلوى هانم .. سلوى هانم»..

حاولت أن تبدي الاهتمام وهي تفتح عينيها بصعوبة من ثقل النوم وهي تتثاءب قائلة: "ما بك؟ ماذا حدث؟ ولَم كل هذا الصراخ؟"

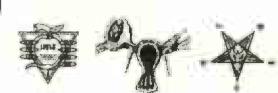
وهي لا تزال تتكلم بطريقة هستيرية هلعة "سليم بك.. سليم بك وجدناه ملقًى على الأرض لا يتنفس سيدتي"..

تقوم سلوى مسرعة وهي تحاول التظاهر بالقلق وتتبعها الخادمة إلى غرفة سليم لتجده كما هو ملقى على الأرض وقد فارق الحياة.. وفي مشهد مسرحي متقن.. تركع سلوى إلى جوار جسده وترفع رأسه وتضمه إلى صدرها وهي تصرخ وتبكي على تلك الفاجعة!

شخَّص الطبيب سبب الوفاة بأنها الذبحة الصدرية وصرَّح بدفن الجثة. حرصت سلوى على أن تُقيم سرادقًا كبيرًا للعزاء يليق بالمكانة الاجتماعية المرموقة لها ولسليم.. وحضر العزاء جميع العائلة وكل رجال الأعمال والأهل وذوو المناصب المحترمة بالدولة..

انتهت مراسم الجنازة والعزاء وهكذا انتهت سلوى من عذابها والعار الذي كاد أن يدمرها هي وابنها مرادًا.. ظنًّا منها أنها قد خلّصت ابنها من المذلة والخزي الذي كان سيلحق به..

ثم توقفت المرآة عن السرد!



وضعت المرآة جانبًا ونظرت إليها أحدّث نفسي وأنا في حالة من التخبط والشتات، فهل كان القتل هو الحل الوحيد؟ هل كان العلاج هو دمًا بدم؟

وما هذا الماضي المخزي أيها الأجداد! أجدادي يرتكبون الجرائم! وأية جرائم؟ خيانة! وقتل! ورذيلة!

كيف استطعتم أن تقتلوا!.. وتقتلون من! أحباءكم! كيف؟! أيًا كان المبرر.. لا مبرر.. لا مبرر أبدًا للقتل.

فهل لي أن أجد لجدتي سلوى عذرًا لما فعلته؟ أم هل ما فعلته كان هو الصواب بعينه؟ لم أعد أستطيع التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ.. بين ما يجب وما لا يجب، عقلي توقف وتيبست أفكاري معه..

أين الوفاء والأمانة في هذه الدنيا؟! أين نجد الراحة والسكينة؟! متى نطمئن لمن حولنا؟! ومتى نثق بمن حولنا؟ بمن أحببناهم وارتضينا أن نكمل معهم طريقنا حتى النهاية؟ ولماذا يخونون؟ لماذا يتغيرون؟

لماذا الطعنة لا تأتي إلا منهم ودون رحمة أو شفقة؟ لماذا يقررون فجأة المضي في الطريق وحدهم من دوننا؟ هل العيب فينا نحن أم فيهم؟! أم أن اختياراتنا هي الخاطئة من البداية؟! أم أن كلًّا منا لم يرَ الآخر على حقيقته من البداية؟ أم أنها هي طبيعتنا.. طبيعة البشر؟ عشرات الأسئلة التي لا أعرف إجابة لها.. ولم أصل إلى شيء! ووجدتني مضطرة أن أستسلم لنهاية تلك الحكاية وأستعد لمأساة أخرى..

24

وبلا أي مقدمات وفي اثناء ما كنت أحدث نفسي ووسط كل هذا العناء والحزن اذ بي آر فجأة في حجرتي ما يشبه طاقة من النور قوية من النور ظهرت أمامي.. كاد قلبي ان يتوقف مما آر حتى ظننت انني نائمة وأحلم، لكنني كنت على يقين أنني في كامل وعي ويقظتي.. وبعد لحظات اندفع من تلك الطاقة رجلاً..! وما ان رأيته عرفته في الحال..انه هو المسافر دائما.. انه حسين ابن جدتي فائقة.. كان هو بالفعل نفس الوجه ونفس اللحية والشارب ونفس الملابس.. أليست هالة النور هذه هي كالتي رأيته يدخلها حين كنت اتابعه في المرآة واختفى فيها..!

وقفت في مكاني مشدوهة محملقة فيه.. نهض هو من فوق الأرض وأخذ يهندم ثيابه ويتحسس ساعة يده الكبيرة؛ ليتأكد من أنها ما زالت موجودة.. ثم تلفّت حوله وهو يعدل نظارته فوق أنفه الطويل الشامخ..

هذه المرة رأيته في الواقع كان وسيمًا جدًّا وملامحه تشبه إلى حد كبير ملامح الأوربيين.. وبعد أن تفقد الغرفة بعينيه ابتسم قائلًا:

- إمم! لم يتغير المكان كثيرًا.. تقريبًا كما تركته آخر مرة.

- حسين!.

مستغربًا - نعم هو انا.. كيف عرفتي اسمي..

- إنها حكاية طويلة.. اسمي فريدة، أنا من أحفاد عائشة بنت أختك الأميرة فريال..

بدا منتبهًا لَم أقول لكن مسحة من الحزن ظهرت عليه وتجهم وجهه قليلًا وأردف قائلًا..

- فريال! رحمة الله عليها ..

وصمت لحظة وتنهد ثم عاود قائلًا:

- من الواضح انني قد سافرت مسافة أطول مما ينبغي هذه المرة ايضًا.

- حقا أنك على سفر دائم.

- كيف عرفت.. من الذي قال لك؟.

- المرآة..

- مرآة؟! آية مرآة .

- مرآة جدتي فائقة .. والدتك

- أمي! أعتقد انك تشبهينها إلى حد كبير.. أكاد أشعر انها انت!
صمت برهة واستطرد قائلًا:

- لكن لازالت لا أفهمك.. ما حكاية تلك المرآة التي تتحدثين عنها وكيف لها أن تخبرك عني؟ أشعر بغموض في كلامك .

- قل لي انت أولًا ما هو سر طاقة النور تلك التي تدخل وتخرج منها .. وكيف استطعت الوصول إلى هنا رغم ما يفصل بيننا من سنوات طويلة وأجيال عديدة.

- إنه سفر.. مجرد سفر .

- وهل تسافر في الزمن؟

- نعم تستطيعين قول ذلك.. لكن كيف عرفتِ عن السفر عبر الزمن؟.

- لا تنسَ أنك الآن في المستقبل.

- صحيح كدت أن أنسى.. على كل حال، إنها ساعة اخترعتها لتمكنني من أن أحدد التوقيت المناسب فلكيًّا، وكذلك اللحظة المواتية لأعبر إما للماضي أو للمستقبل.

- لكنني رأيتك تسافر في تاريخ عائلتك فقط.. لم تذهب إلى أزمان أخرى على ما أعتقد.

- رأيتني! مرة أخرى لا أفهمك.. على كل حال وبصرف النظر عن هذا الغموض الذي يحيط بكِ، فإنني قد سافرت كثيرًا.. سافرت لأبعد من الماضي الذي أعرفه أو تعرفيه أنتِ.. وذهبت لأبعد من المستقبل الذي قد



تتخيلوه أنتم.. لكني كنت دائمًا أطوق لرؤية عائلتي وأشتاق إلى هذا البيت.. فكنت أسافر لأبحث عنها.

– تبحث عنها.. من هي؟.

وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

– قولي لي أولًا أيتها الفضولية كثيرة الكلام ما قصة المرآة التي ذكرتِ أنها تخص أمي؟.

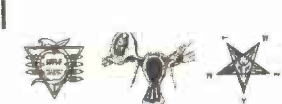
وبدأت أحكي له عن المرآة دون الدخول في تفاصيل واكتفيت فقط أن أخبره عن أنها تريني الماضي.. وأنني رأيت فيها أجدادي ورأيته أيضًا وهو لا يزال طفلًا رضيعًا.. وانتهيت من كلامي فوجدته شاردًا لا يتكلم ولا يعقب على ما أقول! ثم بادرني قائلًا..

– مرآة نرى فيها الماضي! والحاضر أيضًا.. وكانت ملكًا لأمي! لم يذكر لي أحد أي شيء عن هذه المرآة، ولم أسمع قط عن هذا الحكيم علام الذي تقولين عنه إنه صانع المرآة.

– لا أحد يعرف أي شيء عن المرآة إلا بعض من نساء العائلة تناقلوها فيما بينهم جيلًا بعد جيل في سرية تامة.

– قلتِ إن من شروط المرآة ألا تبوحي بسرها لأحد.. أليس كذلك؟"

" نعم.. صحيح.



- ألا تخافين الآن من عقاب المرآة؟.

- ها.. لا أدري!.

- إذًا هل لي أن أنظر إليها؟.

- لا.. لا إنها...

- ماذا بك؟ لا تقلقي فأنا الآن قد عرفت عنها.. ولن يضر اذا تطلعت إليها.

حقًا كنت خائفة ليس فقط من المرآة ولكن أيضا أشفقت عليه هو مما سيعرفه منها.. فقد تحكي له كل شيء، لا بل إنها بالتأكيد ستحكي له كل شيء سوف يعرف حقيقة ما حدث.. فسارعت أحاول تحويل مجرى الحديث إلى اتجاه آخر..

- لكن اختراعك هذا عبقري حقًا.. ساعة تجعلك تسافر في الزمن حيث شئت! يا لها من تجربة شائقة.

- نعم إنها شائقة وخطرة أيضًا..

- كيف هذا؟.

- أتعرفين؟ سافرت كثيرًا ورأيت الكثير من الأهوال خاطرت بحياتي وكدت أن أفقد حياتي.. فمرة أجد نفسي منغمسًا داخل حرب مشتعلة وسط النيران والكثيرين يتساقطون من حولي ولا أستطيع الهروب ولا أعرف إلى أين الفرار.. ومرة أخرى أجد نفسي في عرض البحر من غير قارب أصارع الأمواج.. أكاد أن أغرق وليس لديَّ أية فرصة للنجاة..



وتارة أسافر لعصر كان الإنسان فيه لم يعرف بعد ما هي النار، إنه زمن موحش كان فيه الإنسان ظاهريًا أشبه بالحيوان يصارع فقط كي يعيش .. أو أسافر للمستقبل.. مستقبل أبعد بكثير من الآن فيه البشر موجودون لكن بأعداد قليلة مقارنة بأعداد مهولة أخرى من اختراع أسموه " الإنسان الآلي "اخترعه الإنسان بنفسه وبإرادته لكي يحل محلة! ويجعله يعيش أكثر راحة ورغدًا.. ولكن ما يدهشك في الأمر أن الإنسان هو من أصبح عبدًا لهذا الآلي وكأنه فقد عقله برغم عبقريته المدهشة، فقد استطاع هؤلاء الآليون السيطرة على كل شيء وحتى على عقول من اخترعوهم! رأيت الكثير والكثير لكن الشيء الوحيد الذي كان يعذبني ويؤلمني هو فريال أختي ومنظرها وهي نائمة على سريرها لا تتحرك ونظرة غريبة في عينيها لم أفهم منها شيئًا.. كان مرضها مفاجئًا غريبًا وغامضًا..

وحين عدت إلى لندن لأنهي بعض الأعمال، أرسلوا لي برقيه تبلغني أنها ماتت.. حزنت ويئست، وقررت أن أبقى هناك ولا أعود أبدًا وأنسى كل شيء لكني لم أستطع..

أتعرفين ..أن من أهم أسباب اختراعي لهذه الساعة هو أنني أريد رؤيتها مرة أخرى.. كانت هي الإنسانة الوحيدة التي بقيت لي من رائحة أمي.. أمي التي ماتت قبل أن أتعلم كيف أنطق اسمها.. حاولت كثيرًا أن أقابل فريال في سفري هذا، لكن في كل مرة كنت أسافر لها.. فلا أجدها.. حاولت ألا أيأس أبدًا، وفي كل مرة أقول لنفسي إن التوقيت سيكون منضبطًا هذه المرة وسألتقيها حتمًا..



كنت أصل إلى هنا بالفعل لكن للأسف لا أجد آخرين غيرها وزمانًا آخر غير زمانها.. دومًا كان لديَّ أمل كبير أن أراها وبالأخص في هذه المرة لكن.

سكت عن الكلام وتنهد بحزن وأسى عميقين.. ثم فرك جبينه بيديه.. وتحسس لحيته.. ونظر إليَّ مبتسمًا وهو يقول..

– الغريب أنني ولأول مرة أتمكن من التحدث إلى أحدهم! في كل مرة تفرض عليَّ الظروف عدم القدرة على التواصل مع أي شخص.. سعيد جدًّا لرؤيتك والتحدث معك يا فريدة.. ذكرتني بأختي وأمي.

– صدقني لا أعرف ما الذي يجب أن أقوله الآن.. سامحني فأنا.. أقصد أن كل هذا صعب جدًّا عليَّ وغريب بالنسبة لي.. لقد تعبت من كل هذا الذي أعيشه وأعايشه في المرآة.. أنا حقًّا مشتتة فاقدة للاتزان، حتى أنني لا أعرف إن كنت أنت حقيقة فعلًا أم أنني أهذي وأنك وهم وخيال .

– ما الذي رأيته بالمرآة وفعل بك كل هذا؟! ولماذا تتهربين وتراوغين حتى لا أتطلع إليها.

مد حسين يده إلى المرآة التي كانت لا تزال بيدي.. فجذبتها محاولة إثناءه عن أن يأخذها.. ولكنه أصر فلم أجد مفرًّا من أن أتركها له..

وجدت أنني لن أستطيع البقاء بالغرفة فليس لديَّ القدرة على ذلك، فخرجت وتركته يرى وحده ما ستحكيه له المرآة..



جلست طوال الليل على الأريكة حتى غلبني النعاس وعندما فقت كان ضوء الشمس قد استبد بالسماء.. وتذكرت حسينًا والمرآة.. فانتفضت مهرولة إلى الأعلى لأطمئن عليه.. نقرت على باب الغرفة عدة مرات فلم أجد ردًّا ففتحت الباب بحرص عله ما زال نائمًا..

فرأيته جالسًا كما تركته إلى المنضدة كما هو وقد ألقى برأسه عليها.. والمرآة بيده ممسكًا بها.. كأنني أسمعه ينهنه باكيًا..

"يا ربي هل يبكي!"

اقتربت منه وربتٌ على كتفه فرفع متثاقلًا رأسه ينظر اليّ، كانت عيناه شديدتي الاحمرار شاحبًا مُصفر الوجه والدموع تبلل لحيته الكثيفة.. وقبل أن أتكلم بادرني هو قائلًا بكلمات خرجت بصعوبة من بين شفتيه اللتين تحول لونهما للأبيض!

- لم أنا وأنتِ دونًا عنهم جميعًا استطعنا البقاء.

- ربما لنكون شاهدين على ما حدث .

- وربما لكي ننهي كل هذا.

- ننهيه! كيف؟ .

لم أكد أكمل سؤالي حتى انتبهت إلى يده اليمنى المدلاة إلى جواره من الجهة الأخرى لأجدها تعرف والدماء تقطر منها تسيل على الأرض.. لقد قطع شريانه!

صرخت فيه وأنا أحاول أن أهز جسده الخائر:

- ما الذي فعلته بنفسك..!

قال بكلمات بطيئة ثقيلة مدغمة:

- فريدة.. أتؤمنين بالقدر؟.

- .. أعتقد ذلك .

- إذًا فلتنهي كل شيء.. لا تترددي .

- ماذا تقصد؟ حسين .. حسين.

لم أتلق أي إجابة عن سؤالي كانت تلك آخر ما نطق به ثم تجمدت عيناه وهو لايزال ينظر إليّ.

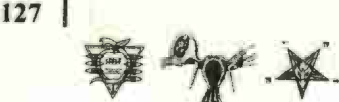
" يا ويلي! يا للمسكين! ظل مسافرًا يبحث عن أخته يقلب عنها في الأزمان ويفتش في الأيام ولم يرها إلا في مرآة الحقيقة هذه! اللعنة على الحقيقة وعلى تلك المرآة.."

فهل سافر في كل تلك السنوات في الماضي والحاضر لينتهي به المطاف هنا ليقتل نفسه ويموت منتحرًا؟!

ألهذه الدرجة لا تريد المرآة أن تترك أحدًا منا يفر منها! أكان لقاؤنا هذا هو مجرد مصادفة.. هل هناك حكمة ما؟ بعد كل هذا فأنا لا أرى أية حكمة.. فجميعنا متخبطون تائهون ضائعون.."

ألقيت نظرة عليه وأنا ما زلت غير مستوعبة لكل ما حدث ويحدث..

" قتيل في حجرتي..



ماذا سأفعل الآن وأين أذهب به؟ هل أتصل بالشرطة؟ وإن جاءت الشرطة فماذا سأقول إن سألوني من هذا الرجل.. ومن يكون؟ لن أستطيع أن أحكي لهم عن أي شيء بالطبع سوف يتهمونني بالجنون.. بالتأكيد لن يصدقني أحد.."

وقعت عيناي على المرآة على المنضدة الى جوار رأس حسين بعينه المحملقة بي فمددت يدي والتقطها غاضبة وكشخصٍ يقف أمامي أحدثه ويحدثني صرخت فيها..

»اسمعي! إن كان هناك أي شيء آخر تريدين أن أعرفه وتعذبينني به.. فلترويه.. هيا قولي.. ولينتهي بعد ذلك كل شيء.. أيًّا كان ما تريدين الوصول إليه.. ارويه الآن.. ولتخلصيني من أعباء هذا الماضي وتحمل كل تلك الأحداث والحيوات المعذبة لأناس عاشوا وماتوا قبل أن أولد.. لا ذنب لي فيها.. لا ذنب لي أن أحمل في داخلي كل ما عاشوه وكل مآسيهم المفجعة.. أتسمعين! لا ذنب لي.. لم أعد أحتمل«..

كنت غاضبة جدًّا وأيضًا أردت أن أعرف! هل لا يزال هناك المزيد من الآلام والأحزان.. هل هناك المزيد من الأرواح المعذبة التي ما زالت تريد أن تحكي لي مزيدًا من عذاباتها.. لم أكد أنتهِي من كلماتي حتى وجدت صورتي تموج أمامي بالمرآة كأني أرى وجهي على صفحة مياه راكدة داعبتها نسمات الهواء بغتة..

إذًا ستحكي لي المرآة.. هناك بالفعل المزيد ما زالت تريد إخباري به.. هل سمعتني المرآة حقًّا؟! هل ستستجيب لندائي وتجيب عن تساؤلاتي؟!

25

تختفي صورتي رويدًا رويدًا! وتتداخل معها ملامح لشخص لم أستطع بعد تفسيرها.. إنه هو.. الحكيم علام! رأيته ينظر إليّ عيناه في عيني تمامًا، لم يكن مبتسمًا هادئًا هذه المرة، كان وجهه عابسًا في غضب مكتوم، وكانت نظرته لي نظرة غامضة أرعبتني.. وكأنه غاضب مني أنا.. انتفض جسدي وكدت أن ألقي بالمرآة من يدي خوفًا منه، ولكن سريعًا ما وجدت ملامحه تختفي وظهر بدلًا منها صور لأشخاص ووجوه غائمة.. ينجلي المشهد شيئًا فشيئًا.. وأنا أحاول جاهدة تمييز تلك الوجوه وهؤلاء الأشخاص.. كنت مع كل ذلك خائفة أتلفت حولي في توتر.. أرى جثة حسين والدماء تسيل منها.. وما زلت أيضًا أشعر وكأن أحدهم معي بالغرفة.. هناك طاقة ما خفية أشعر بها وتحيط بي..

وتابعت في توتر النظر في المرآة..

رأيت فتاتين تجلس إحداهما إلى البيانو تعزف إحدى مقطوعات موتسارت والأخرى تبدو أصغر سنًّا منها تقف متكئة على البيانو تستمع

إلى عزفها في انسجام.. إنه البيانو نفسه الموجود هنا بالبيت بحجرة الصالون بالطابق الأرضي! بل إنه هو نفس الأثاث تقريبًا! نعم إنه هنا بالبيت! لكن من هؤلاء؟

تحركت الصورة لأرى في أحد جوانب الغرفة سيدة أنيقة تجلس على كرسي الصالون يبدو عليها الرقي والهيبة ..تستمع هي الأخرى في انسجام إلى عزف فتاة البيانو.. من هذه يا ترى؟ كانت تشبه جدتي رقية إلى حد كبير! إنها هي.. جدتي رقية! إنها جدتي وهي شابة!

حبيبتي يا جدتي..كم اشتقت إليك! افتقدتك جدًّا.. إنكِ جميلة راقية كما عهدتك دائمًا..غافلتني الدموع ولم أستطع مقاومتها.. شعرت بالأسى والحزن على جدتي وصديقتي التي افتقدتها.. كم أحتاج إليها الآن! كم أريد أن أدفن رأسي في صدرك الحنون، لتزيحي عني بلمستك الحانية همومي ولتنسيني كل ما رأيته في تلك المرآة!

كانت الفتاة قد انتهت في تلك اللحظة من عزفها.. فصفقت جدتي لها إعجابًا وهي تقول: "برافو.. برافو يا عزة.."

»عزة! هل هذه أمي؟! نعم إنها أمي! أمي.. ها هي أمي.. أراها أمامي تتحرك وتتكلم.. كنت أتمنى لو أنني أراها لمرة واحدة..وها هي أمنيتي تتحقق.. جميلة أنت يا أمي..رحمة الله عليكِ..« جدتي تنادي الفتاة الأخرى «زهرة! » قالت لي جدتي قبل ذلك إنه كان لي خالة اسمها زهرة.. ولكنها توفيت وهي صغيرة في سن الخامسة!



أسمع جدتي تقول: «عزة فلتذهبي أنت وزهرة إلى المطبخ لتريا إن كانوا قد انتهوا من إعداد الغداء أم لا، فزوجك شريف على وصول الآن..

هذه إذًا هي خالتي زهرة.. التي سبق وحدثتني عنها جدتي! ولكن كيف ذلك وقد ماتت وهي صغيرة كما قالت لي! شيء مُحير ..لَمَ أخفت جدتي عني هذا؟! ولَمَ قالت أنها توفيت وهي في الخامسة، وإذا كانت خالتي لا تزال على قيد الحياة فأين هي الآن؟!

ووسط تلك الحيرات وجدت المرآة تنتقل بي إلى مشهد جديد..

ترقد أمي على سريرها يبدو عليها الإنهاك والتعب وإلى جوارها طفل حديث الولادة يبكي.. ويدخل إلى الغرفة رجل وسيم في الثلاثين من العمر يرتدي قميصًا رمادي اللون، وبنطالًا أسود أنيق كانت تبدو على وجهه علامات الفرحة والبهجة.. اقترب منها وقبّل يدها في رومانسية حانية وأخذ يداعب ذلك الطفل الصغير الذي إلى جوارها.. ثم نظر لها في حنان وهو يقول: «ماذا سنسميها؟!

فأجابته بصوت دافئ هادئ «نسميها فريدة» ..

فريدة! إنها أنا .. يا ربي.. هل هذا هو أبي؟! نعم إنه أبي! أبي الذي لم أره من قبل فلم أجد له قط أي صورة لأحتفظ بها.. أراه أمامي الآن.. والمولود الذي إلى جوار أمي هي أنا.. لا أصدق.. أرى أمي وأبي وأنا!



كادت الفرحة أن تصيبني بالجنون! وفجأة توقفت أنا عن كل هذا وكأنني استيقظت من حلم جميل لا أريده أن ينتهي لأستعيد وعيي على واقع مؤلم أهرب منه..

بحكم خبرتي القصيرة مع المرآة إنها لم تحكِ لي قط إلا عن الأشخاص الذين مروا بأحداث مؤلمة أو انتهوا بنهايات مأساوية.. وتسلل الخوف والرعب إلى قلبي منذرًا بمجهول جديد..

***

26

ترددت كثيرًا في أن أستكمل متابعة باقي الأحداث التي تعرضها المرآة أمامي، ولكنه فضولي لمعرفة الحقيقة دفعني لمتابعة المجهول..

وهأنا أرى أمي وهي تحملني وتهدهدني برفق.. يا لتلك الابتسامة العذبة الرقيقة! وهي تغني بصوت هادئ! يا الله! ما هذا الصوت الملائكي؟ وما أجمل وجهك الرقيق وابتسامتك الهادئة! تضعني بكل حنان وحرص في سريري بعد أن استسلمت للنوم في تلك الأحضان الأمنة الدافئة.. وقد اطمأنت أنني ذهبت في نوم عميق.. ثم خرجت من الحجرة في هدوء حتى لا توقظني.. واتجهت إلى حجرة جدتي.. ولكنها لم تجدها فيها.. كادت أن تهم بالخروج من الغرفة عندما وقعت عيناها على شيء ما على السرير لم تره من قبل عند والدها..

اقتربت لتجدها مرآة من الفضة وهي نفسها تلك المرآة..تمسكها وهي مستغربة من وجود مثل تلك المرآة عند والدها.. فهي لم ترها من قبل..



لكن لماذا تركت جدتي المرآة ملقاة هكذا! ألم تخشَ أن يراها أحد ويطلع على سرها!

وتابعت أمي التطلع إلى المرآة..

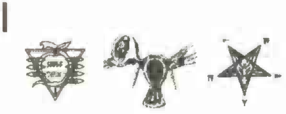
لم يمر وقت طويل عليها وهي تتطلع إلى المرآة حتى رأيت نظرة مريبة تعتلي وجهها! أشعر وكأن صرخة مكتومة تريد أن تنطلق من بين ضلوعها تكاد تمزقها.. فتلقي بالمرآة على السرير وتتجه مسرعة لتخرج من البيت وتركب سيارتها.. وتقودها بسرعة..

ماذا يحدث؟! ما الذي رأته في تلك المرآة اللعينة! ما الذي جعل ذلك الوجه البريء يبدو بهذا الهلع والغضب؟

أوقفت سيارتها أمام عمارة أنيقة، كان الوقت متأخرًا والشارع خاليًا تقريبًا من المارة.. مرت بجوار بواب العمارة دون أن يشعر بها كان يغطّ في نوم عميق.. تصعد السلالم في خطوات متسارعة تارة وتارة أخرى تتثاقل خطواتها وكأنها تتردد في أن تكمل طريقها صعودًا.. وقفت أمام شقه تحمل الرقم «53».. تحاول بصعوبة أن تلتقط أنفاسها.. كذلك كانت تحاول أن تستجمع قواها وشتات نفسها.. وبهدوء حذر تطرق الباب وبعد لحظات طويلة.. يُفتح الباب..

وإذا بأبي واقفًا أمامها مرتديًا بيجاما وقد ترك أزرارها مفتوحة! تجمد في مكانه من المفاجأة، لم يتحرك وَلم ينطق بأي كلمة..

ظلت أمي تنظر له نظرة طويلة تملؤها الكثير من الأسئلة.. نظرة تائهة..



ودون أي كلمة تدخل إلى الشقة متخطية زوجها الذي لا يزال متجمدًا في مكانه كانت تمشي بخطوات متثاقلة تجر قدميها وهي تعبر الممر المؤدي إلى غرف النوم.. وكأن هذا المشهد لم يكن غريبًا عليّ! تذكرت لحظتها جدتي الأميرة فائقة وهي تمشي في ممر قصرها متجهة إلى غرفة خادمتها نور قبل لحظات من اكتشاف خيانة زوجها (غالي)! تلك النظرة التي كانت في عين جدتي فائقة.. هي نفسها التي أراها الآن في عين أمي!

ما زال أبي واقفًا في مكانه عند باب الشقة، لم يتحرك! تقترب من باب غرفة النوم التي يخرج منها ضوء خافت.. نظرت في حسره وقد اعتصرها الألم إلى تلك الفتاة المضطجعة شبه عارية على السرير!

إنها زهرة خالتي!

تنتبه زهرة إلى أمي الواقفة عند باب الغرفة.. فينخلع قلبها هلعًا، فتخرج من صدرها شهقة عالية.. وهي تضع يدها على فمها.. وتتجمد هي الأخرى على تلك الحال!

تنظر لها أمي نظرة باردة باطنها لهيب متقد.. نظرة متحجرة من الصدمة..

تتراجع أمي المسكينة بكل هدوء في انكسار وحسرة تلفها خيبة الأمل وهي ما زالت تجرجر في قدميها، محاولة أن تخرج من هذا المكان..



لم تنطق بأي كلمة.. لم توجه اللوم إلى أحد.. تنسحب في هدوء كما دخلت، دون أن تنظر إلى وجه أبي.. لا تريد أن تراه.. وكأنه لا يستحق حتى أن تنظر إليه..

تخرج من باب العمارة متجهة إلى سيارتها التي تركتها مفتوحة.. وقبل أن تركب السيارة سمعت صوت صرخة عالية.. تبعها صوت ارتطام قوي على الأرض.. التفتت أمي وراءها في حزنٍ.. لترى أختها ملقاة على وجهها وقد تدفقت الدماء بغزارة منها.. لم تستطع البكاء في تلك اللحظة كانت الفاجعة أقوى من أي دموع..

وانطلقت بسيارتها مسرعة وهي تكاد لا ترى أمامها .. كانت في حالة من الضياع ..

ولكن.. احترسي يا أمي.. احترسي.. أمي.. أمي.. لا.. لا ..

لم تسمعني ..اندفعت بسيارتها لتسقطت بإرادتها في مياه الترعة.. أرادت أن تنهي حياتها المحطَّمة بنفسها..

لَم فعلت ذلك يا أمي؟! كان يجب أن تعيشي برغم كل شيء.. أنت لا تستحقين الموت هما من كانا يستحقان..

هكذا ماتت أمي إذًا.. كذبتِ عليّ يا جدتي وقلتِ إنها ماتت من الحمى.. لن ألومك على ذلك فماذا كنت ستقولين لي؟

لم يعرف أحد أن الذي كان مع خالتي في تلك الليلة هو زوج أختها.. أبي! لقد فرَّ هاربًا قبل أن ينتبه الجيران إلى ما حدث!

الشقة كانت في الأساس ملكًا لجدتي.. والتي وصلت إلى المكان بعد أن غادرت أمي بلحظات.. لتجد جثة ابنتها الصغرى غارقة في دمائها على الرصيف، والشرطة تطوق المكان..

في اليوم التالي تم انتشال جثمان أمي المسكينة من المياه..

كان الأمر لا يحتمل بالنسبة لجدتي، كانت ساكنة هادئة كالجبل لكن بداخلها بركان يكاد أن ينفجر في أي لحظة..

عاد أبي إلى البيت في نفس تلك الليلة وهو يحاول أن يبدو طبيعيًا..حتى لا ينفضح أمره.. لم يكن يعلم أن أمره قد انكشف بالفعل لها..

مرت عدة أسابيع.. بعد أن قُيدت قضية مصرع خالتي زهرة على أنها انتحار.. كما جاء في نتيجة تحليل المعمل الجنائي والطب الشرعي.. وكذلك مصرع والدتي المسكينة قُيد على أن الحادث جاء نتيجة لاختلال في عجلة القيادة مما أدى إلى انحراف السيارة عن مسارها وسقوطها في الترعة ووفاتها في الحال! ولم يأتِ ببال أحد أن يربط بين الحادثتين وتوقيت وقوعهما..

وفي المرآة كان الوقت مساءً والستائر في حجرة البيانو مسدلة، يضيء الحجرة تلك المصابيح النحاسية الأنيقة المعلقة على الجدران.. أرى أبي جالسًا على الأريكة.. وأمامه فنجان من القهوة الساخنة في حين جلست جدتي في هدوء غريب.. إلى الآن لم ينفجر البركان!

ما كل هذا الصبر وقوة التحمُّل! وهي تعلم فعلته وخسته وخيانته.. يجلس أمامها كأن شيئًا لم يكن!

يرتشف القليل من القهوة، وهو يختلس النظرات إلى جدتي بعينين يملؤهما الخبث..

ودون مقدمات قالت جدتي:

- شريف..

ينظر أبي إليها منتظرًا أن تكمل كلامها..

»عرفت ان زهرة لم تكن بمفردها في الشقة ليلة الحادث!«

في ارتبارك:

- عرفتي! فعلًا! هل كان هناك أحد معاها؟! من.. من الذي كان هناك؟!

- أين كنت أنت ليلة الحادث يا شريف!

- أنا!!.. كن.. كنت سهران مع بعض من أصدقائي..

جدتي في نظرة ثاقبة اخترقت عينيه

- حقًا! أكنت مع أصدقائك ومع زهرة بشقتي في نفس الوقت؟!

يهتز الفنجان في يده.. وتكمل جدتي حديثها:

- مالك! تفاجأت أني عرفت؟!.



شريف يهب واقفًا:

- ما هذا الكلام الفارغ؟ ماذا تقصدين بكلامك؟!

جدتي:

- هذا ليس كلامًا فارغًا..هذا يقين..كنت تعتقد أن لا أحد سيعرف؟! اعتقدت أن بموت عزة وزهرة مات سرك معهم.. أليس كذلك؟ لكن للأسف.. خيانتك وقذارتك ظاهرتين عليك.. أراهما في عينيك«..

يقترب شريف من جدتي رقية وفي عينيه نظرة غادرة، عازمًا على التخلص منها خوفًا من أن تفضحه.. يحاول بصعوبة أن يمسكها من رقبتها بكلتا يديه محاولًا خنقها..

***

27

لم تتحرك جدتي ولم تحاول مقاومته! كانت يداه ضعيفتين لا تقويان على أن تضغط على رقبتها..

ثم خرجت منه صرخة قوية حاول أن يكتمها! فترك رقبتها وأمسك بمعدته التي تكاد أن تتمزق من شدة الألم.. تحول لونه تدريجيًا إلى اللون الأزرق.. أنفاسه تخرج بصعوبة! يحملق بعينيه الفزعتين إلى جدتي وهي تبتسم في ساخرة..

»هل كنت تريد أن تتخلص مني أنا أيضًا؟ خسارة لن تستطيع.. أتعرف لِمَ؟ لأنك أنت من ستموت الآن.. «

وتقترب منه وهو راكع على الأرض يتلوى من الألم قائلة «هنيئًا على القهوة «!

يسقط أبي ميتًا.. ويخرج من فمه زبد أصفر اللون، وعيناه مفتوحتان تطل منهما نظرة رهيبة.. أخافتني.. نفس النظرة التي رأيتها في عيني سليم..

لا تزال جدتي تنظر إلى الجسد الملقى على الأرض في برودٍ.. فلقد ثأرت لبنتيها..

أخذت تجره في عناء إلى حديقة البيت لتلقيه بحفرة كبيرة يبدو أنها قضت الكثير من الوقت والجهد في إعدادها.. ألقته بها،

تخلصت منه.. ولكنها لم تتخلص من هذا العذاب الذي سوف يرافقها طوال حياتها..

لا أصدق! جدتي الرقيقة الطيبة تقتل! جدتي التي لم أرَ على وجهها يومًا أي لمحة غضب أو شر.. تقتل! وتقتل أبي.. أنا لا أصدق.. لا أصدق..

" أيتها المرآة اللعينة أنت تكذبين.. إنكِ كاذبة.. لا لا يمكن جدتي أبدًا ما كانت لتفعل ذلك لا هي ولا أبي.. أبدًا.. أبدًا "

خرجت مندفعة من باب المنزل إلى الحديقة باتجاه نفس المكان الذي رأيت جدتي تدفن فيه أبي.. وبدأت أنبش في التراب بيدي فوجدتها لا تسعفني وإنني أحتاج إلى فأس أو جاروف يساعدني وبالفعل، وجدت واحدًا قديمًا بحجرة الجنائني..أحضرته وأخذت أحفر وأحفر..حتى انكشف أمامي ما كان مردومًا!

ولم أصدق ما رأيت.. وجدت بالفعل هيكلًا عظميًا لرجل يرتدي قميصًا وبنطالًا.. إنها نفس الملابس التي رأيته يرتديها بالمرآة.. أنه هو أبي!

" يا ويلي! آه مما ألاقي! رحماك ربي!"

بكيت صارخة أترنح في كل اتجاه انظر للسماء.. لا أعرف إن كنت أعاتبها أم أطلب منها العون على ما أنا فيه!

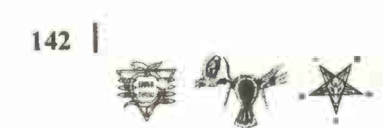
عدت مسرعة أصعد على الدرج عدوًا إلى غرفة جدتي حيث المرآة.. وقفت في منتصف الغرفة أنظر في كل اتجاه أكاد أجن.. وجدتني أحدث صورة جدتي في انفعال مقهورة كأنها ما زلت حية أمامي..

" هل ألومك أنت.. أم ألومه هو الذي دمر عائلة بأكملها؟ ألومه لأنه هو من جعلك تعيشين هذه المأساة وحدك طوال كل تلك السنين.. هل أكرهك لأنكِ قتلتِ أبي؟! أم أكرهه هو لأنه تسبَّب في مقتل أمي وخالتي! كيف استطعتِ أن تخفي داخلك هذا الماضي المرير؟ كيف! وكيف تحملتِ ثقل هذا العذاب الأليم ولم أرَ منك في يوم غير وجهك الباسم وعينيك الصافيتين؟!

هل تحملتِ كل ذلك لأجلي؟! كذبتِ عليَّ حتى تنقذيني من صدمة تلك المأساة المريعة!

ألهذا كان إصرارك على أن أتخلص من كل شيء في البدروم دون أن أفتش فيه.. ولم أفهمك.. لم أكن أعرف.. وتخلصت من كل شيء عدا الشيء الوحيد الذي أردتني أن أتخلص منه.. أردت أن تحميني من أشباح الماضي!

لكن هأنذا وأنت لم تستطيعين حمايتي.. لم يستطع أحد حمايتي.. لماذا لم تتخلصي من تلك المرآة بنفسك؟!



لكن كيف؟! بالتأكيد كنت تخشين إن كسرتها أو حاولت إهمالها، إنها كانت ستكسرك..

ولكن هل هناك أي شيءٍ آخر من الممكن أن يكسرك أكثر مما حدث لك؟!

نعم بالتأكيد كنت تخشين من أن تؤذيني المرآة.. فأنا التي تبقيتُ لك من بعد كل ما حدث.. عشت لأجلي.. لم تكوني لتجازفي بي أنا أيضًا.. طلبت منّي التخلص من كل ما في البدروم دون أن تخبريني عن المرآة.. حتى لا تؤذيني إذا تخلصت منها..

الآن عرفت حكمتك من وراء وصيتك التي استهنت بها..الآن فهمت..

ولكن، والآن ماذا بعد أن فتحت المقفول ونبشت المردوم.. ماذا تبقّى؟ ماذا سيحدث أكثر مما حدث وأكثر مما كان؟ ما الذي أخشى منه أكثر من كل هذا! "

كنت أحدثها وأبكي بهيستريا أشبه بالصراخ.. حين سمعت أصواتًا تأتيني من كل مكان بالغرفة تتدفق إلى أذني، تتزاحم بعقلي.. إنها أصوات كل من رأيتهم في المرآة أعرفها جيدًا.. كل الكلمات التي قالوها.. وأحاديثهم.. همساتهم.. ضحكاتهم.. وتلك الأحداث تمر أمامي من جديد في عشوائية وبلا ترتيب.. لكنها وهذه المرة كنت أراها من حولي خارج المرآة وكأنها واقع..

كنت أراهم جميعًا يقفون متزاحمين بتلك الغرفة الصغيرة.. أراهم من دون المرآة.. من حولي في نفس المكان يقتربون مني.. فتارة أراهم على هيئاتهم التي ماتوا عليها.. وتارة أخرى أراهم يضحكون بصورة هيسترية.. ضحكاتهم مفزعة يتردد صدها في تكرار يكاد أن يصيبني بالجنون..

ينظرون إليّ ..ينادونني.. يريدونني أن أنظر إليهم.. وأحدثهم.. حتى حسين نفسه الذي ما زالت جثته أمامي رأيته كأنه عاد للحياة من جديد ويشير إليّ بيديه اللتين تقطر منهما الدماء!

تحاشيت النظر إليهم، وأخفيت وجهي بكلتا يدي محاولة ألا أرىَ أي شخص منهم.. صرخت بهم..

«كفى.. كفى.. اتركوني.. لا أريد أن أسمعكم.. لا أريد أن أراكم أو أسمعكم بعد اليوم.. ابتعدوا عني..ابتعدوا عني جميعًا".

وخر جسدي ساجدًا على الأرض متوسلة لهم أن يتركوني.. ومن وسط كل هذا الزحام الذي كان يملأ الغرفة رأيته.. رأيت علامًا..رأيته يقف هناك في زاوية من الزوايا وهو يبتسم في خبث.. فتحولت تدريجيًّا تلك الابتسامة إلى ضحكة شيطانية مدوية يتردد صداها في أرجاء المكان كله تكاد تهتز لها الجدران..لم أستطع تحملها، أفزعتني تلك النظرة والضحكة الشريرة ورأيت وجهه يتغير أمامي يتحول من هذا الشيخ الكبير ذي اللحية البيضاء المقوس الظهر إلى وجه بشع مسود قميء، وقد نبت له بجبينه قرنان وبرز ناباه من فمه.. كان هو نفسه ذاك الوجه المنقوش على يد الكرسي الذي رأيته في بيته، إنه هو.. إنه الشيطان بعينه!

شعرت بالمكان والجدران تهتز من حولي كأن زلزالًا عنيفًا يضرب بقوة، كنت أكافح لكيلا أغيب عن الوعي من هول ما أرى، قاومت حتى استطعت أن أنهض من على الأرض المتأرجحة من تحتي أردت الهرب من كل هذا الكابوس.. التقطت المرآة وبصعوبة فتحت باب الغرفة وأنا ما زلت أصرخ متوسلة إليهم، وما إن انفتح الباب حتى خرجت مهرولة من تلك الغرفة الملعونة..

ركبت سيارتي وقُدتُ بأقصى سرعة.. كنت كلما نظرت إلى الكرسي الذي إلى جواري خُيل إليّ أن علامًا يجلس فيه.. فأراه مرة بوجهه الشيطاني ومرة أخرى بوجه الذي ألفته في المرآة، والغضب يملأ عينيه، فيزيد من توتري، فأزيد من سرعتي، حاولت تفادي الاصطدام مع السيارات الأخرى عدة مرات والتي تعالى صوت نفيرها اعتراضًا على سرعتي وتهوري..

إلى أن توقفت أخيرًا على جانب النهر، كنت قابضة في تشنج بكلتا يدي على عجلة القيادة.. حاولت أن أستجمع قوتي وأهدئ من أنفاسي المتلاحقة.. نظرت إلى المرآة الملقاة إلى جواري على الكرسي..

ومددت يدي إليها في بطء وأمسكت بها في حذر.. ثم ترجلت من السيارة التي تركت بابها مفتوحًا ومشيت بهدوء شاردة إلى السور الحديدي الذي يفصل بيني وبين النهر.. نظرت إلى الأسفل.. لأجد صفحة الماء قاتمة مصمتة، لم تكن أكثر رعبًا من صفحة المرآة ساعتها.. تسلقت السور! وبعد نظرة خاطفة إلى المرآة ثم إلى السماء توسلت فيها العفو والرحمة من



الله.. ودون تردد ألقيت نفسي إلى النهر وأنا أحتضنها.. ابتلعتني مياه النهر.. واختفت أيضًا بداخلها المرآة..

" تخلصت منها.. نعم تخلصت منها ومن كل أشباح الماضي ومن عذابات الحقيقة الموجعة التي عرفتها، لم أستطع تحمُّل ما رأيتهُ.. فتخلصت من كل أسرار الماضي البعيد والقريب.. بكل أحداثه..

كم كنت مثقلة بالآلام والأوجاع التي عايشها أسلافي، وكأنها استقرت جميعها بداخلي وحدي.."

قالت فريدة كلماتها الأخيرة تلك وهي مبتلة ترتجف متدثرة بغطاء سميك أعطاه إياها صاحب المركب الذي رآها وهي تسقط في الماء فسارع لإنقاذها..

والذي كان يستمع إليها في صمت بنظرة باهتة حتى أنهت حكايتها.. فتحرك الرجل في بطء وأدار ظهره لها وكأنه لم يتأثر بكل ما سمع منها.. وأخذ يحرك مجدافي المركب يقلب بهما الماء بهدوء، وما زالت في عينيه تلك النظرة الغامضة.. ثم قال وقد تحول وجهه إلى علام!

"لكنك بُحتِ بسرها وأردت التخلص منها.. لقد أهلكتُها"..

***

